# المؤمنون بالإنسان

يوسف الحجاجي

الكتاب: المؤمنون بالإنسان

الكاتب: يوسف الحجاجي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الحجاجي، يوسف

المؤمنون بالإنسان / يوسف الحجاجي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٥٩٠ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٧٠١٦ / ٢٠٢٢

# المؤمنون بالإنسان

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

# الإهداء

إلى أستاذي الأكبر..

إلى أبي الروحي.. إلى من علمني كيف أقرأ وكيف أكتب

إلى من كان لي نبراسًا منيرًا وسيكون.. إلى"فتحي رضوان"، أهدى إليه هذه الآراء الحرة.

المؤلف

# كلمات خالدة

إن الفكر عظيم وسريع وحر، إنه نور يضئ الدنيا، وهو الدعامة الأولى في مسجد الإنسان، ولكن إذا كنا نريد أن يكون الفكر ملكًا للكثرة فينبغي علينا أن نقضي على الخوف.. إن الخوف هو الذي يعوق تقدم الناس– الخوف من أن يثبت أن معتقداتهم الأثيرة ليست سوى سراب.. الخوف من أن يثبت أنهم هم أنفسهم لا يستأهلون الاحترام الذي يعتقدونه حقًا لهم.. إذا فكر العامل بحرية في الملكية فاذا يحدث لنا نحن الأغنياء؟! وإذ فكر الشبان والشابات بحرية في الجنس فماذا تؤول إليه الأخلاق؟!

وإذا فكر الجنود بحرية في الحرب فماذا يكون أمر الحرب!

برتراند رسل

لأن يتجرد الإنسان من كل فكرة عن الله خير من أن تكون له فكرة سيئة فيه!

فرنسيس بيكون

حينما تفقد إيمانك بأشياء غيبية لا تقف عند هذا الحد فستقف حائرًا مذهولًا ولكن حيرتك ستتبدد حتما حينها تؤمن بالإنسان.

المؤلف

# مقدمة

إنني أعلم بعد ما يفرغ من قراءة بعض هذه الآراء أو حتى حينما ينظر إلى فصل من فصول الكتاب سوف يهمس ثم يرتفع الهمس إلى زئير.. ما هذا التطرف، ما هذا التحلل، ما هذا الخ..، هل هؤلاء صناع الحياة، هل هذه آراء هادية إلى الطريق؟ لا إنها دعوة الهدم والإباحية، إلى آخر هذه الألفاظ الرنانة التي نسمعها ويسمعها كل داع إلى التطور والارتقاء.

ولكنني مع ذلك سأصيح مهلًا لأن يتجرد الإنسان من كل فكرة عن الله خير من أن تكون له فكرة سيئة فيه.. هذا ما قاله "فرنسيس بيكون" في باب الخرافة، لك العذر أيها القارئ لقد كنت وما زلت سجينة لحفنة من الوعاظ، هذه الحفنة أدخلت في روعك أن دعوتها نابعة من عقل الله فسلبت البعض قوى عقله وتفكيره وجعلته إنسانًا آليا لا يخضع إلا لمنطق واحد وتفكير واحد، وما هو منطقهم أو قل ما هي آرائهم، إنهم بكل صراحة أعداء لكل ما ينبثق من العقل البشري.. لكل شيء حرام في هذه الحياة لأنها زائلة، وقبض الريح لم تفكر أنت فيها وتسعد وترتقي معها، إن ذرة من الإيمان حتى ولو كان هذا الإيمان يمتلئ بكافة الخرافات، لهي خير وأجدى علينا من كل المعرفة، أليست المعرفة وليدة الشيطان؟! والشيطان لربه هو العدو المبين، إنني مازلت أذكر قول أحدهم وهو يعظ ويسترسل في وعظه قائلًا: يا قوم إن الحياة قد أخذت زخرفها وما هو ذلك الزخرف.. إن الزخرف هو ذلك الاختراعات الحديثة من طائرات وكهرباء وسيارات

الخ ومادامت الحياة قد أخذت زخرفها فالنهاية آنية ولا ريب في ذلك.. عجبي من هؤلاء وما تحويه عقولهم من معرفة لا تخرج عن هذه الأشياء.. فقه سنه.. تواشيح.. العلم حرام وعلم النفس حرام والقصص حرام!

أتذكر أيها القارئ العزيز يوم كانوا يتحدثون عن الجن وكيف يتناسل؟! وصاح أحد الكتاب المتطورين الارتقائيين، وهو الأستاذ الكبير "سلامة مرسي" إننا سئمنا هذه الروحانية الفجة وإن لنا أن ننهل من العمل ونهرول إليه.

هذه هي معرفتهم أما علاجهم فطريف للغاية ومحطم أقصى ما يكون التحطيم علاجهم نصيحة وعظ إرشاد.. لا ظروف ولا بيئة تحدد تكوين الفرد وتشكل سلوكه واتجاهاته ومعاملاته مع أبناء مجتمعة، وحينها تفشل النصيحة وهي حتّما مصيبها الفشل، يصيحون "الشيطان" ركبه اضربوه ويزداد الفرد إجرامًا فيصبحون مرة أخرى الشيطان قوى عليه ولا مفر من العصا.. ولكن العلم.. العلم المنقذ المخلص صاح قائلًا ولتكن هذه الصيحة على سبيل المثال.

"إن الأطفال ليسوا أخيارًا ولا أشرارًا بالفطرة فهم يولدون وليس فيهم إلا بعض غرائز وانعكاسات ومن هذه تنتج العادات بتأثير البيئة والوسط والعادات، إما صحيحة أو سيئة تتوقف على حكمة الأمهات..

إذ طبيعة الطفل في أول الأمر مطاوعة إلى حد لا يكاد يصدق، فالجمهرة العظمى من الأطفال مادة لتكوين المواطن الصالح أو لتخريج مجرم عاتي!،

يوسف الحجاجي

# الملحد الداعي إلى النزعة الإنسانية

لم نعد ملزمين بالتسليم بالكوارث الخارجية والبؤس والشقاء والضنك أشياء لابد منها أو لا تعرف كنهها ولم نعد مضطرين إلى الحياة في عالم لا تاريخ له والتطور لا معني فيه كان أجدادنا الجهلاء يرون أن الوباء عقوبة إلهية أما في نظرنا فهذا مرض نعمل على القضاء عليه أو الوقاية منه.

[هكسلي]

ولعل الله هو الذي صنع العالم ولكن هذا لا يعني أننا لا نصنعه من جديد.

[برتراند رسل]

كعادتي كل أسبوع ذهبت هذه المرة إلى إحدى دور الكتب لأغوص بين أعماق الكتب وفجأة برز أمامي عنوان هذا الكتاب وخيل إلى أنه كتاب فلسفة لا أكثر فإن عنوانه ينم عن ذلك.. وحملته معي إلى المنزل هو وعدة كتب أخرى وما إن أقبلت عليه حتى وجدته كتاب (علم) فمؤلفه (عالم) لا أديب ولا فيلسوف وما أن قلبت الصفحة الثانية حتى فوجئت بهذه الفقرة (المؤلف ملحد) لا يعتقد في أي دين من الأديان السماوية ولكن أمانة الترجمة اقتضتنا ذلك..! ولم يجدد الاشمئزاز إلى سبيلًا من قول المترجم الفاضل.. المؤلف (ملحد). فلقد كنت داعمًا أرى أن أي مفكر ملحد لابد أن يتبع إلحاده بمبادئ هدامة تبعث فينا الكره للحياة والأحياء،

كنت أرى ذلك قبل أن أحيا في عالم القراءة ولكن هذا الرأي تبدد وإنني حينما عشت طويلًا مع فلاسفة ومفكرين أنكروا جود (الإله) وبرز إلحادهم واضحًا في مؤلفاتهم ولكنهم مع ذلك دعوا إلى الحب وبذلوا في سبيل إقامة جنة على هذه الأرض، جنة حافلة بالعدالة زاخرة بالعطف ومشاركة الناس للناس في آلامهم وأحزانهم..! وإلى الآن لم أنسى مبادئ (ولز) وهو منكر (ملحد) ولكن دعوته إلى إقامة مجتمع عالمي تسوده العدالة الاقتصادية والاجتماعية لاتزال ترن في ذهني وتهتف أن ولز هو أحد المدافعين عن الإنسان وعن كيانه، وليس (ولز) وحده فلنرجع إلى الوراء طويلًا ونذكر بوذا ألم يكن ملحدًا؟! ألم يأبى في حياته أن يدخل في مناقشات لا طائل من تحتها ولا فائدة ورائها.. إنه ملحد بكل ما في الكلمة من معنى ولكنه مع ذلك أتى بمبادئ أعتقد أنها لا تقل قداسة عن المبادئ المسيحية فلقد غالى في الرحمة والفضيلة حتى حرم قتل أي كائن حي يدب على الأرض.. ومن ثمة لم أنزعج من هذه الفقرة التي تقول إن المؤلف ملحد وبدأت أدرس الكتاب مع مؤلفه العالم الكبير (جوليان هكسلي).. والكتاب يضم عدة أبواب منها (تفرد الإنسان) أي تفوقه البيولوجي على سائر الكائنات، وسبب التفوق البيولوجي يرجع إلى العدد والتقاليد.

وفي كل عصر جيولوجي نعرفه وجدت أنواع اتسمت بالسيادة البيولوجية وكانت تتكاثر وتقضي على الأنواع المنافسة.. وعادة نجد في أي عصر نوعًا معينًا يمد نفوذه ويتكاثر إلا أنه يوجد أحيانًا أكثر من نوع واحد.. ويسمى العصر الأوسط بعصر الزواحف، ولكن في الحقيقة كانت

الزواحف تنافس الحشرات في ذلك العصر على السيادة ومن الصعب أن نقرر إذا ما كانت "التربلوبيدات" "أو نونتليدات" أو (الأسماك) الأولى هي النوع صاحب السيادة، ومع ذلك فالاتفاق تام في العصر الحاضر على أن الإنسان هو النوع الوحيد صاحب السيادة، وعلى ذاك فوجهة النظر البيولوجية تقول لم تخلق الحيوانات لخدمة الإنسان لكنه تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة له ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس..

كما أن هناك خصائص أخرى يمتاز بها الإنسان وهي القدرة على التجريد والتحليل، وناحية أخرى، وهي التجارب التي قام بها "تيريل".. في أن الإنسان قادر أن يعرف أشياء ستقع عن طريق (الحدس) وقد أثبتت التجارب على أن الموهوبين (بالحدس) دون استخدام (الحواس) يصدق حدسهم مرة كل أربع سنوات.. إلا أن هذه الملكة بدائية فقليلًا ما تصدق، ومع ذلك إذا استطعنا أن نكشف عن كنه هذه الملكة والجهاز الذي تعتمد عليه والظروف والعوامل التي تؤثر فيها، فلابد أن تصبح قادرة على التقدم كأي ملكة أخرى لدى الإنسان، و بذلك يكون الإنسان فريدًا في أقواله، وهناك باب آخر وهو "ذكاء الطيور" ولكن هذا الذكاء لا يمكن أن يقارن بذكاء الإنسان، فعدم الإدراك والتمييز من خصائص الطير، فإنك لو أخذت أفراخ من عش ما كما فعل السيد "كيرتي"، ووضعت محلها بعضًا فإن الأم بعد لحظة من الدهشة الظاهرة تقبل الحالة بكل هدوء وتستجيب الباعث الجديد بالطريقة الملائمة برقودها على البيض، ولا

يظهر عليها أي أثر للقلق والحزن الذين تشعر بهما الأم من بني الإنسان، لكن في الطيور خصائص كافية في الإنسان فعاطفة الغيرة موجودة في الطيور فتتقاتل الديكة المتنافسة حتى الموت..

إلا أن هناك اختلافًا واضحًا جوهريًا فلا ماض ولا مستقبل لدى الطيور وخوفها ليس إلا مجرد خوف إنه ليس خوفًا من الموت.. ولا يمكن للطير أن يتوقع ألمًا ولا أن يصبح الألم سببًا في عقدة داعة، وعندما يزول سبب الخوف سرعان ما يزول خوفها، وهناك أبواب أخرى كثيرة إلا أن الأبواب الثلاثة الأخيرة هي التي استوقفتني طويلًا وفيها يبرز إلحاد المؤلف.. فقد تكلم في الباب الأول من الأبواب الثلاثة الأخيرة عن الدين كمسألة موضوعية، ويبدو المؤلف هنا تفاؤلي النزعة فنفي وجود "الإله" عنده يتبع مرحلة بناء كبير وإقامة جنة أرضية يسودها العدل والمساواة والسعادة، استمع إليه وهو يقول.. إن الإنسان قد خلق القوى الخارقة للطبيعة ليلقي عليها مالًا يستطيع فهمه فاعتقد الإنسان البدائي في السحر، ثم في الأرواح الشخصية، ثم انتقل من الأرواح إلى آلهة كثيرة، ثم إلى إله واحد أو بعبارة بسيطة انتهى إلى التطور ولقد كانت الآلهة في عصر ما من حضارتنا الغربية تخيلات ضرورية وفروض تساعد على الحياة، إلا أن الألم ليست ضرورية أو مفيدة إلا في إحدى مراحل التطور ".. ولكي يكون" للآلهة قيمة عند الإنسان لا بد من وجود ثلاثة أشياء يجب أن تبقى وإذا زالت هذه الأشياء فلا داعي لوجود الآلهة أو للإيمان بها..

أولًا: أن تبقى كوارث العالم الخارجي غير مفهومة، ولا يمكن منعها

حتى تكون مزعجة للغاية. أو أن تكون قسوة الحياة العامة وعجزها بحيث يحولان دون تصديق أن في الإمكان تحسين هذا العالم وعندئذ يستطيع الإله "ولا تستطيع الحياة الاجتماعية" أن تهيئ من الوسائل ما يلزم لإصلاح الحال!

ثانيًا: يجب أن يكون الإنسان في حالة عقلية غير متقدمة حتى لا يستطيع فهم وتشخيص القوى اللاشعورية لضميره الشعوري.. وقواه اللاشعورية كأنها كائنات غريبة عنه. خارجة عن نفسه.. ثم يستطرد المؤلف العالم قوله لقد أوصلنا تقدم العلوم والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرض عدم الفائدة. طردته العلوم الطبيعية من عقولنا حتى أختي الحاكم مدبر الكون، لقد أدت زيادة المعرفة إلى إدراك أن السحر عقيدة باطلة وإن منع الكوارث لا يتحقق إلا بالعلم وتطبيقاته.. وأن الطقوس الدينية التي تصحب تقدم القرابين وصلاة الاستغفار عديمة المعنى، وإن تحليل العقل البشري وما كشفه عن قدرات على رسم الخطط وإشباع الرغبات وما كشفه عن العقل الباطن يجعل لا داعي للاعتقاد بأن الانحراف وما إلى ذلك يرجع إلى قوة روحية خارجية، وأنه ليس من العمل في شيء أن ننسب التوفيق في الأعمال إلى هداية من الله .. والإله والآلهة والملائكة والجن والأرواح وغيرها من الأشياء الصغيرة الروحية من عمل الإنسان وناشئة حتمًا عن نوع من الجهل ودرجة من العجز أمام بيئته الخارجية.. ويؤدي اختفاء الإله إلى تغير جوهري في الدين، ومعنى ذلك قيام الإنسان بتحمل التبعات التي كان يلقيها على الاله وما هي التبعات؟

أولاً: الإنسان مسئول عن تدبير أموره رغم جهله وما يحيط به من أسرار العالم لقد كان الإنسان في العصور السابقة يلقى العبء على كائن مقدس غير مفهوم، يسير الإله أعماله بطريقة غامضة أما الآن فيجب عليه ألا يفعل ذلك نظرًا لزيادة معرفته بحقائق الكون..

ثانيًا: مسئولية الإنسان عن مصيره الذي لم يعد في يد الله حاكم الكون..

ثالثًا: وهو هام للغاية، الإنسان مسئول عن صحة النوع الإنساني وسعادته وإطالة الحياة على هذه الأرض، فالفقر والعبودية والبؤس الاجتماعي والديمقراطية والملكية والنظم الاقتصادية والسياسية ليست نظمًا إلهية لابد منها وإنما هي مظاهر يمكن فهم كنهها والسيطرة عليها كما نسيطر على مظاهر الكيمياء والطبيعة.. وفي المستقبل القريب سيجد الوازع الديني المخرج الأساسي له في بيئة الإنسان الداخلية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، لأن قوى هذه البيئة الداخلية هي التي تسبب الضيق والارتباك والتي نحس بها وكأنها قدر محتوم علينا، وسيجد العلم مجاله الأساسي لمحاولة جديدة في هذا الميدان، إذ أن جهلنا بيئتنا وعجزنا عن السيطرة عليها واضحان للغاية.. وسننتقل مع المؤلف الكبير إلى الباب الثاني بعنوان تستطيع الحياة بأن تكون جديرة بأن نحياها واستمع إلى ما يقوله مرة أخرى.. لم نعد ملزمين بالتسليم بالكوارث الخارجية والبؤس والشقاء والضنك في الحياة كأشياء لابد منها أو لا نعرف كنهها، ولم نعد مضطرين إلى الحياة في عالم لا تاريخ له والتطور لا معنى له وكان أجدادنا

الجهلاء يرون الوباء عقوبة إلهية أما في نظرنا فهو مرض نعمل للقضاء عليه، ومن الممكن التغلب عليه أو الوقاية منه ولقد أوصلنا "علم النفس" أيضًا إلى منع الأطفال من أن يشبوا وفيهم ميل غير عادي للإجرام يجعل حياتهم عبئًا عليهم، ولقد بدأنا نفهم الجذور السيكولوجية للخوف والقسوة وسيأتي اليوم الذي تستطيع فيه أن نجعل العالم مكانًا أكثر بهجة بالقضاء عليهما.. وليس القدماء تاريخ يستحق الذكر، وكانت حياة الإنسان في العصر الحاضر تعتبر أقل مما كانت في العصر الذهبي البدائي، وحتى القرن التاسع عشر كانت أمام الغرب تعتبر ما كان معروفًا من تاريخ الإنسان عبارة عن سلسلة من القصص لا معنى لها عما حدث في المدة القصيرة بين خلق الدنيا وهبوط آدم وحواء من الجنة، وأن عودة المسيح ويوم القيامة قد يكونان في أي لحظة وعلى أي حال لا يمكن أن تزيد على بضعة آلاف سنة في المستقبل، وهكذا كانت ألف سنة عبارة عن أبدية تقريبًا، وبهذه النظرة لا غرابة أن بدت الحياة قصيرة وأن مآسيها ومغايبها محيرة مالم يضيئها ما ينبعث من الدين من نور وهمي كاذب.. أما في هذه الأيام فتاريخ الإنسان يدخل فيها قبل التاريخ، يدخل في التطور البيولوجي ومقياس الزمن أصبح متغيرًا جدًا وألف سنة زمن قصير لما قبل التاريخ الذي يحسب بمئات الألوف من السنين، وزمن تافه بالنسبة للتطور الذي يتناول فترات كل منها عشرة مليون سنة، ويشبه الحاضر تمامًا فإذا كانت الحياة الفطرية أخذت ألف مليون سنة لتخلق الإنسان، لابد أن يأخذ مثل هذه المدة ليتطوروا أكثر من هذا..

وأعتقد أيضًا أن الفرد ليس شيئًا منعزلًا عن الكون وإنما هو مجموعة من العلاقات بين الأصل الذي نشأ منه والعالم بما فيه من الأفراد الآخرين. وقد يعتقد الفرد أن من واجبه أن يكرس نفسه كلية القضية ما بل ويضحي بحياته في سبيلها، وقد تكون القضية وطنه أو نصره الحق أو الفن أو الحب، ويصبح في تفانيه المثل الأعلى للإنسانية! ولكن مما لا شك فيه أن على الفرد أن يخضع للمجتمع ولكن لا إلى حد الاعتقاد بأن في المجتمع مزايا أرقى ما في مزايا الأفراد الذين يكونونه..

وإني أعتقد في ضرورة اختلاف الأفراد ويعرف كل بيولوجي أن الناس يختلفون في استعداداتهم الوراثية ومن ثم فيما يمكن تحقيقه من إمكانيات وليس في وسع أي مقدار من التعليم والمشتغل

المسائل العقلية أن يجعل المنبسط يفهم المنطوي والمشتغل بالمسائل العقلية يفهم المشتغل بالمسائل اليدوية!

وفي وسعنا أن نحاول منع بعض الاتجاهات العقلية ولكن في ذلك خسارة كبرى فإن الاختلاف ليس ملح الحياة فحسب وإنما أساس العمل الجماعي.. وعلينا أن نحمي المجتمع من المجرمين وأن نكافح ضد ما نعتقد أنه خطأ! ولكن كما أننا نحاول فهم المجرم فسنحاول إصلاحه أكثر من معاقبته!

إن إيماني الوحيد في الحياة وخيرها وتقدمها وازدهارها وإن عقيدتي النهائية في الحياة!

إن الحاد المؤلف وليد إيمانه بأن العلم سيحل كل شيء ويفسر كل الظواهر التي تحيط بنا ويمنع كل الكوارث التي تنزل على إفراد الجنس البشري فهو يقول.. "وفي التطور" لم يظهر "العلم" حلقة الاتصال التي تهيئ الاستمرار بين الإنسان والمادة عديمة الحياة لحسب وإنما كشف العلم أيضًا ما قد يكون أم حقيقة بيولوجية حقيقة التقدم التطوري! وكثير من التطور بمجرد "تنويع" وتنشأ على الدوام أنواع جديدة تتلائم مع الظروف المختلفة أو تولد نتيجة لحوادث الانفصال البيولوجية أو التهجين ويجب أن نعلم أن التقدم البيولوجي لا يتطلب وسيلة خاصة وبعبارة أخرى لا يحتاج إلى تدخل غاية إلهية واعية أو عمل قوة حيوية خفية وهو كمعظم الحقائق الأخرى في التطور النتيجة الآلية القوى العمياء في التناسل والتنوع ونظرية نيون في الجاذية جعلت من الممكن ومن الضروري القضاء على فكرة أن الله يسير تطور الحياة وأخيرًا نظريات علم النفس الحديث والدين المقارن تجعل من الممكن ومن الضروري القضاء على فكرة أن الله يسير تطور الإنسان بالهام أو بأي طريقة أخرى خارقة للطبيعة.

ثم تنقل المؤلف إلى القيم ويتحدث عنها وينتمي إلى أنها ليست مطلقة، فهو يقول عندما يكبر الفرد يجد أن قيمة الخلقية المطلقة في حاجة إلى مساعدة، فمن الخطأ أن نكذب ولكنا نعرف جميعًا ظروفًا من الخطأ أن نقول الصدق فيها وكلما ازدادت معرفتنا زادت قدرتنا على توجيه عملية "القيم" وخلقها فمثلًا كان يظن أن الأمراض المعدية عقاب الخطيئة فكان تقديم القرابين للآلهة واجبًا خلقيًا وفي هذه الأيام تحمل معرفتنا الحديثة من

واجبنا الخلق عزل المصابين بهذه الأمراض. أما الباب الأخير فيتحدث المؤلف فيه عن الحروب وفي هذا الباب يدحض قول الداعين بأن الحرب نتيجة لطبيعة الإنسان فهنا يقف علماء الحياة ليردوا على هذا القول في أن طبيعة الإنسان ليست فيها غريزة الحرب النوعية كما هي في طبيعة نمل الحصاد ولكن في هذه الطبيعة "نزعة اعتداءيه" ولكنها ككل الدوافع الإنسانية الأخرى ليست بغريزة نوعية ثابتة ومن الممكن صوغها في قوالب أخرى متنوعة لا ضرر فيها من الممكن تحويلها إلى التنافس الرياضي كما في مجتمعنا أو كما حدث في بعض قبائل الفلتوذا إذ أمكن توجيهها إلى لعب كرة القدم بدل صيد الرؤوس ويمكن إعلاؤها إلى الرياضة التي لا منافسة فيها مثل تسلق الجبال أو إلى أنواع من النشاط أرقى من ذلك كالاكتشاف أو البحث أو محاربة الرذائل الاجتماعية..

إلى هنا انتهت سهولتنا الصغيرة مع بعض أبواب هذا الكتاب القيم وفي نفس الوقت الذي عشت فيه مع هذا المفكر كنت أعيش مع مفكر آخر وهو عالم وفيلسوف فذ معاصر اسمه "برتراندرسل"، والاثنان يلتقيان في إنكار وجود الله والأمان الجارف بالعلم مع الدعوة الإنسانية إلى الرحمة والتعاون يقول "برتراند رسل" شارحًا "أصل الإنسان" في إيجاز..

إن الإنسان وليد علل لا تفقه شيئًا عن كنه الغاية التي تحدثها وما أصله ونموه وآماله ومخاوفه وميوله ومعتقداته إلا ثمرة التقاءات عرضية للذرات وليس في وسع أي حمية أو بطولة أو توقد فكر وشعور أن تحفظ حياته فيما وراء القبر وكل ما كسبته الإنسانية مدى الدهر من ثمرات

الكدح والتفاني والإلهام وما أفاض عليها العبقرية من بريق نورها الوضاء مصيره إلى الفناء على فناء النظام الشمسي ومحتوم على ذلك المعبد الجامع لما شيدته يد الإنسان أن يختفي في الأنقاض التي يخلفها خراب الكون كل هذه قضايا إن لم تكن بمنأى عن الاعتراض فإنها تقترب من تمام اليقين قربًا يجعل أي فلسفة ترفضها غير قادرة على البقاء..

ومهما راجعنا أو أولنا – بكل ما أوتينا من رفق– النتائج التي وصل إليها العلم الحديث فلا سبيل إلى اعتبار الإنسان ابن الله خلقت الأرض لتكون مستقرًا له إلى حين، بل يقرر العلم أن الاعتبار الأصدق هو أن نرى في الإنسان كائنًا لا يختلف كثيرًا عن شيء استقر على سطح الأرض اتفاقًا شيء أحدثته فيما بين عصر بين من عهور الجليد نفس القوى التي تبلغ القمح تمام نموه وتسبب الصدأ في الحديد أحدثته دون أن تلقي بالًا إلى ما تفعل بيد أن ذلك الشيء كان كائنًا حساسة وهبته صدفه سعيدة أو غير سعيدة قوى الذكاء ولكن ذلك الذكاء تشكله وتكيفه نفس القوى الكونية التي يحاول هو أن يدرك كنهها وأن يسيطر عليها وأما العملة الأولى لهذه العملية الكونية التي حدث عنها الإنسان فلا ندري أهي الله أم الكهرباء أو قوة دفع الأثير؟! ومهما يكن من حقيقة هذه العلة إن صح أنها علة وليست مجرد فرض من الفروض ذهب إليها الفكر اضطرارًا فظاهر من معلولاتها أنا ليست خيرًا أو شريرًا وليست رحيمة أو قاسية بل هي لا تبالي بنا في كثير أو قليل وما الإنسان في نظر الإلكترون؟! ما هو إلا لقيط نبذته القوى التي صنعته يتيم لا يعنيه ولا يرشده إلى سواء السبيل فلا بد

للإنسان من أن يدبر أمره وأن يلتمس السبل حوله في عالم لا يكترث له مستمدًا العون من ذكائه المحدود!

ويمضي الفيلسوف الكبير متسائلًا في كتابة القيم "النظرة العلمية" ترجمة الأستاذ الفاضل عثمان نوية! هل العالم من صنع خالق؟! الجواب كلا إذ استمسكنا بقوانين الاستنتاج العلية السليمة ونحن لا نجد أقل مبرر لرفض فكرة أن الكون قد بدأ تلقائيًا إلا أن يكون حدوث ذلك عجيبًا بيد أنه ليس من قانون في الطبيعة يقول إن ما يبدو عجيبًا لا يمكن أن يحدث! إن استنتاج خالق استنتاج هو "علة" ولا يسلم بالاستنتاجات العملية في العلم إلا حين تبدأ من قوانين علية محسوسة.. ويمنح المنطق افتراض أن العالم من صنع خالق. فسواء كان ذلك أم لم يكن فالعالم هو العالم فلو أن رجلًا حاول أن يبيعك قنينة من النبيذ الرديء جدًا فإنه لا ينقص من كرامتك له أن يقال إنه من صنع معمل وليس من عصير العنب وعلى هذا النحو لا أرى عزاء في افتراض أن الكون الكريه قد خلق الغاية معينة..ثم يسأل عالم العصر الحديث بل نفس السؤال الذي سأله هكسلي.. هل في عملية التطور أي شيء يتطلب افتراض غاية سواء أكانت داخل العالم أم خارجة؟ و يصعب الجواب عليه بغير تردد على غير علماء الأحياء.. مع ذلك فإني غير مقتنع بتاتًا بما رأيته من حجج تساق لإثبات الغاية.

إن سلوك الحيوانات والنباتات تسير على نحو يؤدي إلى نتائج خاصة يفسرها رجل الأحياء المشاهد بأنها غاية السلوك وهو مستعد على وجه العموم لأن يسلم– فيما يتعلق بالبنات على الأقل– بأن هذه الغاية

لا يبتغيها الكائن شعوريًا على أن هذه فرصة طيبة ولو أراد أن يثبت أنها غاية الخالق ولكني أنا عاجز تمامًا عن رؤية العلة في أن يكون للخالق ذكر ذلك الغابات التي يجب أن نفسها إليه أن كان حقًا قد قصد إلى كل ما يحدث في عالم الحياة العضوية بل إن التقدم في البحث العلمي لم يقدم أي دليل على أن سلوك المادة الحية يتحكم فيه شيء غير قوانين الطبيعة والكمياء.

خذ مثلًا عملية الهضم الخطوة الأولى في العملية هي التقاط الطعام وهذه الخطوة قد درست بعناية في حيوانات كثيرة وخصوصًا في الدجاج فالأفراخ الحديثة الميلاد لديها فعل منعكس يجعلها تلتقط أي شي يشبه شكلًا وحجمًا الحب الصالح للأكل وبعد شيء من التجربة يتحول هذا الفعل المنعكس غير الشرطي إلى فعل منعكس شرطي ويمكن ملاحظة هذا الأمر في الأطفال لا يمصون أثداء أمهاتهم حسب بل يمصون كل شيء يستطاع ماديًا أن يمص فهم يحاولون استحلاب الطعام من الأكتاف والأيدي والأذرع.

ولابد من أن تمض أشهر في التجربة قبل أن يتعلموا قصد مجهودهم على استحلاب الثدي فالرضاع عند الأطفال يكرن في أول الأمر فعلًا منعكسًا غير شرطي وهو ليس بأي حال فعلًا ذكيًا فهو يعتمد في نجاحه على ذكاء الأم ويكون المضغ والازدراء في أول عهدهما من الأفعال غير الشرطية وإن كانا بالتجربة يصبحان شرطيان.. والعمليات الكيمائية التي يتعرض لها الطعام في مراحل الهضم المختلفة قد درست دراسة دقيقة ولم

يوجد أن أحدهما التمس العون من أي نظرية.. حيوية خاصة..

* * *

ثم يتأمل "رسل" في هذا الكون فيجده يجري بلا نظام استمع إليه وهو يقول في سخرية لاذعة.

لقد قيل إلى أن العذاب يرسل تطهيرًا من الخطيئة ولكنني أجد من العسير على أن أعتقد أن طفلًا في عامة الرابع أو الخامس قد أوغل في الظلم بحيث استحق العقاب الذي ينزل بعد غير قليل من الأطفال ويستطيع قديسونا المتفائلون أن يروهم في أي يوم يشاءون وهم يقاسون تاريخ الألم في مستشفيات الأطفال ولقد قيل لي كذلك أن الطفل وإن لم يكن قد ارتكب خطأ فاحشًا فإنه يستحق العذاب عقابًا على آثام والديه وليس لي من رد على ذلك إلا أن أكرر القول بأنه إذا كان ذلك هو فعل العدل عند الله فهو يختلف عن معناه عندي.. وينتهي رسل من ذلك إلى أن الإنسان وحيد وأن جل اعتماده يجب أن يكون على العلم المنقد له في حياته إن طالت أو قصرت.. فمن الإمكانيات العلمية التي سوف تتحقق في المستقبل إمكانية السيطرة على المناخ، بوسائل صناعية والنهج العلمي الحديث قد بث في الإنسان الإحساس بالمقدرة وهذا يغير عقليته كلها في سرعه فقد كانت البيئة حتى زمن قريب شيئًا لا محيص عن قبوله فإن لم تف كمية المطر بإقامة الحياة لم يكن هناك غير الموت أو الهجرة الأقوياء كانوا يلوذون بالهجرة والصفاء فكانوا لا يجدون إلا الموت أما البيئة في نظر الرجل فهي مجرد مادة خام مجرد فرصة الاستغلال ولعل الله هو الذي

مصنع العالم ولكن هذا لا يعني إننا لا نصنعه من جديد.. وهذا الموقف اصطدم بالدين التقليدي اصطدامًا قويًا فالدين التقليدي يعتمد على فكرة اعتماد الإنسان على الله، وهذه الفكرة وإن لم يزل يعترف بها شكلًا فإنها لم تعد تسيطر على خيال رجل العلم الحديث مثلما كانت تسيطر على خيال البدائيين.. إن هؤلاء الأفذاذ أنكروا فما وراء الحياة من قوة تسيطر علينا ولكن النزعة المثالية الداعية إلى النظرة الإخائية للإنسان تسيطر عليهم فهم يحلمون بل يحاولون أن يكرسوا جهودهم لإقامة السلام.. إن إلحاد رسل وولز وهكسلي وغيرهم وغيرهم.

يختلف عن إلحاد الرجل العادي.. أجل تختلف، فالرجل ينكر لأن في إنكاره ما يتفق مع نزواته ومبادئه وميوله ولكن إلحاد هؤلاء العباقرة الأفذاذ يولد عنه من المبادئ ما هو جدير بأن نطبقه في حياتنا.. ومن ثمة لا أستطيع أن أجرؤ وأطلق عليهم لفظ ملحد، فالملحد في نظري هو الكاره للأحياء الذي يبغض ما حوله ولا يدور إلا حول نفسه وعلى العام الخراب والدمار ولكن هؤلاء مؤمنون بالحياة التي يجب أن يحياها الإنسان مع الإنسان.. استمع إلى "رسل" وهو يحدثك عن موقف رجل العلم في العصر الحديث فهو يقول: في الظروف الحديثة إذن يطلب من العاملين في حقل العلم شي. أوسع من توسيع آفاق المعرفة.. فهم لم يعودوا يستطيعون القناعة بأن يسمحوا لغيرهم بأخذ نتائج اكتشافاتهم واستخدامها دون إرشاد فالعاملون في العلم يجب أن يقبلوا مسئولية الإشراف على القوى التي كشف عنها بحثه وبدون مساعدتهم يستحيل قيام إدارة قادرة أو

سياسته متنورة.. إن من أصعب المشاكل التي تواجه الديمقراطية مشكلة إقامة علاقة بين العلم والسياسة وبين المعرفة والسلطة ومن حقنا أن ننتظر من أعضاء الرابطة البريطانية بحثًا لهذه المشكلة وتوجيهًا إلى بعض الوسائل التي يستطيع بها العلم أن يحتل مكانه من الزعامة وبالرغم من العجز النسبي لرجال العلم في الشئون القومية فإنه توجد في الميدان العالمي لجان استشارية من الخبراء حققت منذ الحرب أثرًا ملحوظًا.

وإن رجال العمل الآن قد أخذوا يدركون ما تفرضه عليهم معرفتهم من مسئولية نحو المجتمع وأخذوا يشعرون بأن من واجبهم أن يشاركوا في توجيه الأمور العامة على نحو يزيد عن مشاركتهم فيه حتى الآن.. أما المجتمع المنظم تنظيمًا علميًا فإن عقبات سوف تقف أمامه منها القصور الذاتي والعادة فالناس يبغون أن يظل سلوكهم كما كان دائمًا وأن يعيشوا كما عاشوا دائمًا وهناك عقبة المصلحة الذاتية والنظام الاقتصادي الموروث عن الأزمنة الإقطاعية يعطي مزايا لقوم لم يفعلوا شيئًا ليستحقوها وهؤلاء القوم نظرًا لثروتهم وسطوتهم يستطيعون وضع عقبات شديدة في طريق التغير الأساسي أو فضلًا عن هذه العقبات توجد أيضًا المثل العليا المعادية للأخلاق المسيحية تتعارض مع بعض الوجوه الأساسية مع الأخلاق العلمية– التي يطرد في نموها بالتدريج.. ذلك أن المسيحية تهتم أبلغ الاهتمام بروح الفرد فهي تمقت التضحية برجل بريء من أجل الغالبية أو بعبارة أوجز المسيحية غير سياسية.. وهذا طبيعي لأنها نمت بين قوم مجردين من السلطة السياسية أما الأخلاق الجديدة الآخذة في النمو

التدريجي مع نمو المنهج العلى فستكون عنايتها بالمجتمع أكثر من الفرد وهي إن تعتمد على أسطورة الخطيئة والعقاب وبل وستكون على استعداد لجعل الأفراد يقاسون من أجل القيام العام دون اختراع تمحلات لتثبت أنهم يستحقون ما يقاسون.

إن وسائل السيطرة التي منحها العلم الإنسان إنما يكون استخدامها سليمًا إذا نيط بمن يحترمون المشاعر البشرية ويرقون شيئًا لتلك العواطف التي تعني اللون على الوجود اليومي للرجال والنساء،ولست أبغي إنكار أن المنهج العلمي قد يبني مع الزمن عالمًا من صنعه بفضل ذلك الذي عاش فيه الناس حتى اليوم اكني أقول ذلك لو عمل فيجب أن يصل بروح الاختبار والحذر مع إدراك أن غاية الحكومة لا تقتصر على إمتاع الحكام بل جعل الحياة محتملة على المحكومين ويجب ألا يظل المنهج العلمي وحده بعد اليوم موكل ثقافة القابضين على السلطة ويجب أن يكون من العناصر الأساسية الخلقية عند الناس، إن قوة الإرادة لا تستطيع بمفردها خلق الحياة الطيبة فالمعرفة والوجدان.. يعدلانهما أهمية سواء في حياة الفرد أو المجتمع فالمعرفة إذا كانت واسعة دقيقة جلبت معها إدراكًا للبعيد من الزمان والمكان وإن الفرد ليس شيئًا تناهب إليه المقدرة والخطر فتجلب له القيم أكبر وضوحًا مما تستبين لصاحب النظر القصير وحياة الوجدان أهم من المعرفة ذاتها فالعالم بغير بهجة هو عالم تجرد من القيم إن هذه الأمور يجب أن يذكرها مطبق العلم ولو قد فعل لكان عمله خيرًا خالصًا وكل ما يطلب منه هو إلا تسكر الناس خمر المعرفة الجديدة فينسون تحت تأثيرها

تلك الحقائق التي كانت معروفة لكل جيل خلا من قبلهم فليست كل الحكة جديدة ولا كل الحماقة قديمة..

لقد كان الإنسان حتى الآن مروضًا بخضوعه للطبيعة فلما حرر نفسه من هذا الخضوع بدت عليه نقائص العبد الذي صار سيدًا إن الأمر بحاجة إلى نظرة خلفية جديدة يحل فيها الاحترام لخير ما في الإنسان محل الخضوع لقوى الطبيعة وإنما يكون المنهج العلمي خطرًا حيث يحتض هذا الاحترام..

إن العلم الآن وقد أنقذ الإنسان من عبوديته لطبيعة يستطيع أن يشرع في استنفاذه من الجانب الوضع الذي ورثه عن عهد العبودية لقوى الطبيعة إن الأخطار قائمة ولكن تفاديها مستطاع والعقل يقدر إن المستقبل سيضيئه نور الأمل.. ويشرق عليه شمس الرجاء على الأقل إلى الحد الذي يخشى معه في المستقبل ظلمة الخوف ورهبة البشر.. إلى هذا تنتهي دعوة رسل ولا مفر من أن نقبلها ونبشر بها في هذا العصر أما مسألة إنكار الله فهي مسألة قد نصطدم بعاطفتك الدينية فتثور ولكنك لو تريثت قليلًا لوجدت أن رسل يريد أن يأخذ بيدك ويقيم على هذه الأرض حياة لابد أن يتحقق فيها أعظم شيئين لكي يعيش الإنسان وحيًا سعيدًا وهما الوجدان والمعرفة.

لقد نظرت مثلًا إلى قول "هكسلي" وهو رفيق "رسل" في دعوته وأهدافه نظرت إلى قوله: "إن أجدادنا كانوا يرون المرض عقوبة إلهية أما الآن فهو مرض نعمل للقضاء عليه".. وإذ بي أجد فيلسوفًا آخر يؤيد هذا الرأي رغم أنه مؤمن بالله وهو "باروخ سبينوزا".. ففي كتاب "تكوين العقل

الحديث" تأليف "الكاتب هرمان راندال" ص٤٣٥ نرى هذه الفقرة.. التي تجعلنا لا نؤمن بوجود "العلل والأهداف الغائية" "إن هناك فكرة شائعة مفادها أن جميع الأشياء في الطبيعة تفعل كما يفعل الأفراد أنفسهم أي لتحقيق هدف معين.. ويفعل الناس كل أمر من أجل غاية في نفوسهم أو في سبيل ما هو نافع لهم وما يسعون وراءه وهكذا تراهم يبحثون عن العلل والأهداف الغائية للحوادث وعندما يتم ذلك تراهم يفرحون أو تزول عندهم جميع أسباب الشك فإذا عجزوا عن تعلم مثل هذه الأسباب من مصادر خارجية أقطروا أن يلتفتوا إلى أنفسهم من أجل تأملها والسعي لتحديد الغاية التي دفعتهم للقيام بعمل معين ماذا فعلوا ذلك حكموا بالضرورة على الطبائع الأخرى قياسًا بأنفسهم ثم لما كانوا يجدون في أنفسهم وخارجها ما هو نافع لهم فالأعين للنظر والأسنان المضغ والأعشاب والحيوانات للأكل والشمس للنور البحر للأسماك فإنهم يعتادون والطبيعة، وسيلة لبلوغ مثل هذه الخيرات ولما كانوا يجدون مثل هذه الوسائل المريحة أمامهم دون إجهاد أنفسهم فانهم يستنتجون أن لديهم من الأسباب ما يدفعهم للاعتقاد بأنها خلقت ذاتها ولكنهم يحكمون قياسًا على الوسائل التي اعتادوا صنعها لأنفسهم فهم ملزمون على الاعتداد بوجود حاكم مدبر الكون أو حكام لهم حرية كحرية الإنسان وأن هؤلاء هم الذين رتبوا ونظموا كل شيء لكي يستعمله الإنسان، وفي سعيهم لأن يظهروا أن الطبيعة لا تفعل شيئًا باطلًا أي أن كل ما فيها يخدم مصالح الإنسان.. أثبتوا أن الطبيعة والآلهة والناس هم جميعًا مجانين وإني أتوسل إليك أن تعتبر هذه النتيجة فهم في بحثهم عن الأمور النافعة الكثيرة لا بد

وجدوا بعض العوائق كالهزات الأرضية والأمراض الخ .. وعلى ذلك أعلنوا أن مثل هذه الأمور تقع لأن الآلهة قد غضبت من بعض الآثام التي يقترفها الإنسان أو هفوة وقعت أثناء العبادة.. لكن التجربة أثبتت يومًا بعد يوم وفي عدد معناه من الأمثلة.

إن الأقدار الصالحة والسيئة تنال الأخيار والأشرار على حد سواء.. ومع ذلك لم يتخلوا عن أفكارهم القديمة المركزة لأنه كان من الأسهل عليهم أن يضعوا هذه المتناقضات في عداد الأمور التي يجهلونها أو يجهلون غايتها من أن يهدموا كامل بنائهم الفكري ليتمكنوا بذلك من الاحتفاظ بحالة الجهالة الحقيقية التي أوجدوها لأنفسهم خشية أن يبدو كل شيء من جديد.. ولذلك قالوا إن من الأمور البديهية أن الأحكام الإلهية تتعالى عن مستوى العقل الإنساني وقد كان بوسع هذه النظرية أن تخفي الحقيقة عن الجنس البشري إلى الأبد.. لولا أن الرياضيات قدمت مقياسًا آخر للحقيقة في دراسة خواص الأشكال وذواتها دون اعتبار عليها الغائية.. وبعد.. إننا في حاجة إلى كتب "رسل" و "هكسلي وويلز" وغيرهم وغيرهم إنها الكتب التطويرية التي وإن برز فيها إلحاد مؤلفيها فهذا لا يهم أبدًا لأن في إلحادهم صفاء التوحيد.

# الجسد المنبوذ يستيقظ

رجل الدين الغبي الجاهل يثير احتقارنا ورجل الدين الرديء الشرير يولد الجزع في نفوسنا أما الناضج المتسامح البعيد عن الخرافات فهو الجدير بحبنا واحترامنا.

فولتير

لن تعرف الفضيلة وإن نصل إليها بانكار هذا الجسد وحذار أن تنكر عليه حقه فسيأتي اليوم المحتوم الذي سينفجر فيه محطمًا كل المثل والقيم التي تواضعنا عليها!

"إن الفضيلة" التي يدعون إليها أو سرت في طريقها لا تنقلب عليك جحيمًا لا يطاق فحسب! وإنما في نهايتها كون الهدم والتحطيم ثم لا لمبالاة بكل ما تواضعنا عليه من مثل وقيم!"

الفضيلة المثلى هي قمع الجسد أي قتل الغرائز إنك لن تكون فاضلًا ولن تدخل ملكوت السماء الذي بشر به الأنبياء والقديسون إلا إذا وقفت على قمة "النرفانا" التي بشر بها فيلسوف الهند "بوذا".. أتعرف ما هي قهر "النرفانا" إنها قمة العدم التي كان يقف عليها الهنود قديمًا ولن تقف عليها إلا إذا قضيت على "غريزة الجنس" فلا تلمس امرأة ولا تنظر إليها ولا تلقى عناية على جسدك وتهتم به إنه بن الشيطان الذي لو فكرت فيه لتقلصت قوى الروح وتضاءلت وأصبحت على أبواب عذاب

أليم.. وأتت من بعد هذا المذهب مذاهب وأديان أخرى نبذت أيضًا هذا الجسد الفاني الذي سيصبح عدمًا وترابًا مهمًا طالت الأيام وصاحت.. إن الفضيلة أساسها الإرادة والإرادة كفيلة هنا أن نصارع "غريزة الجنس" حتى تفوز الروح.. إن هذا الجسد ليس له حقوق وكيف تعطيه حقوقًا وهو زائل فإن لا قيمة له.

أما الروح الطليقة الحرة من كل قيد فهي في صراع مع الجسد حتى يكتب لها النصر والفوز والظفر في النهاية بجنات تجري الأنهار من تحتها.. والمرأة حالة من حالات الشيطان نظرة إليها تضيع على الإنسان أي إنسان سعادته وتورده مهالك الجحيم.. إنك في حضرتها قد تجد لذة ولكنها لذة وقتية فانية سريعة إياك أن تنخدع بها.. الفرار منها فاللذة فيما بعد الوجود هي أسمى وأبقى لا نهاية لها على الإطلاق. عليك أن تختار أيها الإنسان الجسد أو الروح الشيطان أم الله... أو بمعنى آخر.... الشيطان والمرأة معًا أم الروح... أنت مخير فلك إرادة قوية فإما هزيمة أرادتك حيث العذاب الأبدي وإما انتصار الروح حيث جنات لا مثيل لها.. واستمرت هذه المذاهب تقيد وجودنا وعلى ضوءها رسمت حياتنا وحدد مضمون "الفضيلة" بأشياء من العسير تحديد غيرها وإذا خرجنا عن هذا التحديد صاحت الأفواه بكلمات تفرقع (من أفواه الوعاظ) مجنون.. رقاعة.. خلائعة.. الخ!

فالصداقة بين فتى وفتاة رقاعة وجرم ذهابهما معًا إلى إحدى النوادي حرام.. أي رجل بشارب طويل وإرادة قوية وشرف ناصع يقبل على ابنته..

هل هذه تربية؟ أين التربية الصحيحة التي تتمسك بتعاليم الدين؟

التربية التي يجب أن يأخذ بها كل رجل محافظ.. تربية رفع العصا ونبذ الجسد ومحو المشاعر أين اليد القوية التي تلوح والفم الذي يصيح.. أنا قلت متخرجيش يعني متخرجيش متسلميش على ابن الجيران يعني متسلميش على ابن الجيران دي فضايح هو أنا طرطور في البيت.. أجل هذه هي التربية المثلى للفتاة والفتى كذلك يجب أن يؤخذ بالشدة والعصا وهناك أيضًا لون آخر من التربية التي تجعل الفتي يتجه بعيدًا عن "غريزة الجنس" فلا يصادق فتاة ولا يميل على الإطلاق إلى هذا الجنس الملعون.. عليكم بالصلاة.. إنها تنهى عن كل شيء ويعتقد رجل الدين أو المربي الذي أخذ بمنطق رجل الدين ورب ابنه وابنته على هذا اللون من التربية أن الفتى أو الفتاة كلاهما قد استطاع أن يصفيا حسابهما مع طبيعتها فيسود الاطمئنان ولا يعرف رجل الدين أو المربي أن الصلاة "كبت" وأنها في الحقيقة هروب من الواقع وتجاهل تام لهذه الغريزة، فالإنسان الذي يلجأ إليها كوسيلة لفرار من نداء الجسد، هو بمثابة الإنسان الذي يحلق طويلًا في الخيال إلى أن يأتي اليوم الذي لابد فيه أن يصطدم بالأمر الواقع وتكون الصدمة قوية عليه محطمة لأخلاقه ومثله وقد يصاب بمجتمعه أيضًا من جراء هذا الانحطاط..

ولكن هؤلاء العلماء لا يذهبون إلى أكثر من هذا العلاج الشافي عليكم بالصلاة، إنها الوسيلة لبلوغ الغاية التي يدعوكم إليها الدين وهي الابتعاد عن الصداقة التجاوب مع هذا الجنس الملعون.. من الله ورسله وملائكته.

ذات يوم ومنذ سبع سنوات على وجه التحديد وكنا أصدقاء في الخامسة عشر من أعمارنا في هذا العمر الملتهب الذي تقسو فيه الغريزة الجنسية وتلح علينا لنجد وسيلة للعلاج إلا عند نفر من هؤلاء العلماء وحدثناه بعد صلاة الجمعة وقلنا له كل شيء نشعر به فما كان منه إلا أن صاح "الصلاة".. "الصلاة".. ونال واحد منا لكننا نخرج من الصلاة فنجد أمامنا عذراء فتثور الغريزة وتلح علينا وحينئذ نلجأ إلى شيء لا نملك إلا غيره (العادة السرية) وقد أدمناها فما كان منه إلا أن ألقى علينا محاضرة نتلخص في شيء واحد وهو (إن ناكح يده في جهنم) إذا كانت رؤية عذراء فاتنة تدفعكم إلى (العادة السرية) فقللوا من تسكعكم في الشوارع حتى لا يثير هذا المنظر غريزتكم العمياء وحينئذ لا تلجأون إليها على الإطلاق وقلت له وأنا أحملق في وجهه لكن أي مراهق يستطيع أن يتخيل من غير أن يرى وحينئذ (يقدم عليها ويمارسها) وصاح العالم في وجهي ثائرًا، أنت غلطان.. صلي كثيرًا صلي بقلب وروح فاهم! أرأيت هذا العلاج العميق الذي يدعو إليه الرجل... الرجل العالم بغير علم! (١) صلاة (٢) (منع العادة السرية) (٣) الإقلال من الخروج.

هذا هو العلاج، هذا هو الحل الصحيح إذا لا تعبير عن هذه الغريزة.. إن الفضيلة هي قمع الجسد واستمر على رابه حتى ألقي محاضرة أخرى في الأسبوع التالي قائلا.. حذار أن يتغلب عليك.. الشيطان فلو قدر لك أن تتعرف بفتاة وتمكنت من أن تجلس معها أو تلمس يدها فثق أنه الشيطان يدفعك ويقودك إلى الضلال أن النظرة خطيئة.. واللمسة

خطيئة. والهمسة خطيئة.. وكل هذه الأشياء تساو خطيئة الزنا وأنتم تعرفون عقوبة هذا الجرم الأخير.. استقيموا يرحمكم الله..

إذا لا تعبير في حدود المثل الأخلاقية لا تعبير حتى ولو كان هذا التعبير لا يخدش الحياء ويؤذى القيم التي تواضعنا عليها. وإنما الصلاة.. (ومنع العادة السرية). والإقلال من الخروج.. وإذا اجتهدت كل الأشياء وقمت بتنفيذها أيها الشاب أصبحت إنسانًا فاضلًا أخلاقيًا.. واستطعت في النهاية أن تصفي الحساب بينك وبين طبيعتك وذهبت هذه "الغريزة العمياء" أي "غريزة الجنس" إلى غير رجعة فلن تلح عليك ولن تقسو.. وهذه هي فلسفة التربية عندهم.. فهل هذا صحيح؟ هذه التربية في الحقيقة ليست سوى الهدم.. هدم المثل والقيم ثم اللامبالاة وكل هذا وأكثر من هذا يخرج من الكبت.. والكبت هو ما يدعون إليه.. لقد جاء "علم النفس الحديث" ليحطم هذه الخرافات وليقيم أخلاق مثلي صحية سليمة وعلى ضوء هذا العلم استيقظ الجسد المنبوذ لأن الفضيلة ليست في إنكار الجسد وإنما في الاعتراف به وفي بحث هذه المشكلة سنعيش مع العالم النفساني الكبير ج. أ هادفيلد في كتابه.. "علم النفس والأخلاق" الذي قدمه لنا الأستاذان الكبيران الدكتور "القوصي" و "أبو العزم" استمع إلى ما يقوله هذا العالم الجليل عن "السعادة والمثل الأعلى".

إن التزهد.. لا يمكن أن يفي بالشروط التي تضعها للمثل الأعلى الصحيح، لأنه يلتمس السعادة بكبت مبدأ اللذة ومادام الجسد في صراع مع الروح والروح في صراع مع الجسد فالنفس تظل مقسمة على نفسها

ونبذ بعض الغرائز مثل الغريزة الجنسية يؤدي إلى صراع ومع الصراع لا تكون سعادة.. إن تحقق الذات هو قانون الحياة وكل المثل العليا التي تقاوم هذا القانون ستمضي في سبيل أولئك الذين يحاولون أن ينتصروا على الطبيعة بدلًا من إخضاعها.. فالمثل الأعلى التزهدي القائم على إنكار الذات ينتهي "بإفناء الذات" والمثل الأعلى الرواقي الذي لا يدع مجالًا لمبدأ اللذة يستحق أن يلقى حتفه والمذهب العقلي الذي يحاول أن يسمو على الغرائز يحصل على الشكل بدون الطاقة والمثل الأعلى بدون الغرائز فكرة بدون قوة، والرجل السعيد هو ذلك الذي يجد تعبير متوافقًا عن غرائزة كلها ثم تنتقل مع العالم "هادفيلد" إلى مشكلة "الكبت" والفرق بينها وبين الهيمنة على الذات ثم الآثار المترتبة على الكبت... يقال في معرض الاحتجاج أننا يجب أن نكبت غرائزنا.. وإلا عجزنا عن التخلص منها وخرجت عن هيمنتنا ونجيب بأنه على العكس لا يمكننا الهيمنة على غرائزنا ما دمنا نسكتها.. وإنما نستطيع الهيمنة عليها بإحضارها إلى الوعي وقبولها جزءً من أنفسنا فنحن لا نحاول أن نستعملها.. وليس الإدارة هيمنة مباشرة على أي اندفاع من اندفاعات النفس سوى تلك التي تدخل في تكوين الذات.. فقد نكبت تلك العناصر التي سبق أن رفضتها لأنها مؤلمة أو لأنها مضرة ولكن ذلك ليس هيمنة على الذات.. بل إن هذه القوى المكبوتة تتفجر دائمًا على صورة اندفاعات وانتصارات ومخاوف وأمراض عصبية تجرف أمامها الإرادة المتذمرة.. الهيمنة على الذات هي إخضاع الانفعالات الغريزية إخضاعًا إراديًا واعيًا لإرادة الإنسان وتوجيهها لخدمته وهذا هو الفارق الجوهري بين الكبت والهيمنة على الذات فالكبت يطرد

العقد والغرائز من الذات على حين أن الهيمنة على الذات تعترف بها كجزء من الذات وبذا تدخلها تحت سلطانها، وما دامت العقد والغرائز مكبوتة فهي كالأولاد الأشقياء الذين إذا طردوا من المدرسة ألحوا في تعذيبها بقذف الحجارة فلا يبقى لنا أمل في الهيمنة عليهم إلا بقبولهم ثانية.. وراحة البال لا تنال أبدًا برفض الشهوات المستبدة القاسية العارمة بل بمعرفتها وقبولها والتسامي بها.

إن "الكبت" عملية "لا شعورية" تكون فيها العقد بغيضة بحيث نأبى أن نتقبلها ولكنها تكون مستعدة للإيجار بطرق شاذة.. أما في "الهيمنة" فنحن لا نعرف اندفاعاتنا فحسب بل تتقبلها أيضًا ونمنحها تعبيرًا مسلكيًا بتوجيهها إلى غايات أسمى.. إذا نحن لا نستطيع الهيمنة على غرائزنا ولا التسامي بها إلا إذا سلمنا بها.. أن قبول اندفاع الجنس على أنه طبيعي وصحيح والهيمنة عليه من ذلك الطريق خير وأجدى على الخلقية من أن يصبح هذا الاندفاع انحصارًا بالإلحاح في كتبه.. والجواب الأخير أننا لا نستطيع أن نستخدم هذه الانفعالات ولا أن نتسامى بها بغير هذه الطريقة وقد ينصحنا ناصح بأنه إذا خطرت لنا أفكار شريرة.. فيجب أن نطردها من ذهننا وننساها وهذه هي بالضبط النصيحة التي وجهت إلى الجندي المصاب بصدمة الحرب أن يحاول نسيان الحرب.. إن التجربة تثبت أن توفيقنا في شفاء الجندي يكون أعظم إذا رجعنا إلى الوراء وجعلناه يقبل ذلك الحقيقة التي يكره الاعتراف بها وهي أنه كان خائفًا وأصح الرجال الذين كانوا في الخنادق أصحهم من الناحية السيكولوجية هو ذلك الذي لم

يكن يستكبر أن يعترف بخوفه وهو أيضًا أعظم أولئك الرجال حظًا من الهيمنة على ذاته فقبوله الخوف في الخنادق لا يضطره إلى الهروب بل تمكن من السيطرة على هذا الخوف فيظل صحيحًا.. وقد وجد بالتجربة أن الأفكار الشريرة يقل انحصارها في العقل إذا منحت التعبير السيكولوجي فخير وسيلة للتخلص من نغمة في الدفاع هي أن نغنيها.. فالاندفاع المكبوت يحتاج إلى تعبير وهو لا يظهر بطرق مرضية إلا لإننا نمنعه التعبير الصحيح!

وما تعنيه حينما يقول البعض ولكننا يجب أن نكبت غرائزنا هو أننا يجب أن نكبحها.. وهذا حق لا شك فيه، فإذا داس محصل السيارة على قدمي كان من الطبيعي بالنسبة إلى أن غضب وكان من الخير أن اعترف بأني غضبان ولكني لست محتاجًا إلى أن أعبر عن غضبي بثورة عارمة فأنا أكظم غيظي وإن كنت أعرف أنه طبيعي لأني أعرف أن الثورة الجامحة لن تجديني شيئًا أما إذا كبت وادعيت النفسي إنني سمح جدًا وأن من المستحيل على أن أغضب فمن المرجح أن ثورتي المكبوتة ستنصب على زوجتي في المساء لتعلة تافهة، فإذا نحن محتاجون في هذه الظروف أن نكبح الاندفاع ولكننا غير محتاجين لأن نكبته.. ومن ثمة يكون المبدأ التعبير السيكولوجي أهمية بالغة في علم الأخلاق، فن الخير للحياة الخلقية وللصحة العقلية أن نسلم بعقدنا البغيضة وأهوائنا الحيوانية لنستطيع أن نهيمن عليها وهذا لا يعني أنه من الضروري أن نعبر عنها تعبيرًا ظاهرًا في صورتها الفجة فإذا كنت رجلًا ذا "أهواه جنسية" فلأعترف بأن هذه

الرغبات في- حدود كونها رغبات- طبيعية وصائبة لكن التعبير الفج عنها بالمسلك عمل غير حكيم لأنه لن يؤدي إلى تحقيق الذات ولا إلى السعادة وإنما أستطيع أن أتسامى بها إلى الصور العليا من الحب وإذًا فبدأ القبول السيكولوجي هام في الخلقية كأهميته في علاج الأمراض العصبية فهو يمدنا بشيئين!

أولًا- يمكننا الهيمنة على اندفاعاتنا التي لا نستطيع الهيمنة عليها ما دمنا كابتين لها!

ثانيًا- ويضع في خدمتنا قوي غريزية ذات تأثير كبير في بناء الخلق!

"وبعد"! دعونا نسأل! رغم صراخ الوعاظ!

إذا أخذنا بدعوة هذا العالم الفذ فماذا سيكون شكل المجتمع في ذلك الوقت سيصيح الوعاظ مجتمع منحل عليه اللعنة أفراده في جهنم وسوء المصير، ولكننا لن نصغي إليهم ولن نعيره أي التفات على الإطلاق فسيكون "الرقص" مادة رئيسية هامة كالطبيعية والأحياء واللغة العربية.. وسوف يكون الاختلاط قائمًا في كل النوادي والمدارس.. وسوف تكون فرصة التعارف والتجاوب ميسرة لكل شاب وسوف تكون متعة الجلوس ورؤية الجنس الآخر سهلة المنال يمكن الوصول إليها بدلًا من كبت هذه الغريزة التي تصبح عمياء بالجدار الذي نضعه أمامها فتخرج مذعورة خائفة في الظلام ترتوي بطريقة نؤذي القيم وتشوه الأخلاق. لن ترى الطلبة يقفزون في سيارات الأتوبيس بحثًا عن فريسة ولن نرى طالبًا- كما نشر في إحدى الصحف يقف فوق سور مدرسة ليرى الطالبات وهن يخلعن

ملابسهن لكي يحظى. بنظرة خاطفة تزيد لوعة وحرمانًا.. ثم يقبض عليه وسلم للنيابة وهو ضحية "الكبت"! السبت الذي سلب إرادته وحطمها! كما يقرر "علماء النفس" في كل زمان ومكان! وفي هذا المجتمع أيضًا سنرى ونلمس تطورًا خطيرًا لا انحلالًا وفسقًا كما يصرخ الوعاظ! في هذا المجتمع الذي يكون فيه الاختلاط اختلاط الفتى بالفتاة أمرًا طبيعيًا في النادي والمدرسة وكل مكان سوف تهدأ عاطفة الجنس أو بمعنى آخر وغريزة الجنس، سوف تنخفض حدة هذه الغريزة القوية الجارفة وحرارتها.. إن في حرارتها وكبتها ووضع الحوائل أمامها سوف نجعل من صاحبها أسيرًا لها لا يفكر إلا في انطلاقها طوال وقته في غدوه ورواحه في مساء وصباحه لكننا إذا يسرنا لصاحبها هذا التعبير المسلكي الصحيح.. فسوف "تبرد" عن قبل.

وفي وسط هذا "البرود" سوف نجني الكثير!

أولًا- سنقيم أخلاقًا مثلي صحيحة..

ثانيًا- لن تكون المرأة أو الفتاة أنثى أو حلم من أحلام الفراش سوف يكون لها معنى آخر سوف نستخرج منها إنسانًا!

ثالثًا- سوف يتجه الكثير من تفكيرنا نحو أشياء أخرى "كالعلم".. "والفن". وبذلك لن يصبح المجتمع الذي نعيش فيه غرفة نوم في ليلة.. صاخبة حمراء ولكنه سوف يتحول إلى معمل للبحث والتجربة.. فهل يجيبني الوعاظ تطور هذا أم انحلال؟ ارتقاء أم فسق؟ .. هذه هي دعوة علم النفس المنقذ.. استقيموا يرحمكم الله حيث لا رحمة لهذه الفئة التي

تحسب أنها تدعو إلى الفضيلة ولكنها في الحقيقة تدعو إلى الهدم والتحطيم.

فاستيقظ أيها الجسد المنبوذ فإن الفضيلة كامنة في هذه اليقظة!

# فلسفه السياسة

نحن لا نعارض في الحكم الديمقراطي حبًا في المعارضة ذاتها ولكن من أجل مصالحنا ومنافعنا وأي قوة– ما قيل عن قداستها– خلت من المسئولية أصبحت فاسدة غاشمة متجبرة!

منطق الديموقراطية.. إن الديمقراطية تشجع كل رجل على أن يكون مسئولًا عن نفسه فيصلب عوده وتسع نظرته..

متعلق الأرستقراطية.. إنني أخشى أن يفسد العلم في ظل الديموقراطية حينها يشك الجمهور في معناه.

"رول ديورانت" لا أجد وصفًا ينطبق على عمق تفكيره سوى أنه الشارح الأكبر لا في أمريكا وحدها بل في أوروبا كلها على حد تعبير الأستاذ الكاتب "عباس محمود العقاد".. حينها تقرأ هذا الكاتب العملاق تشعر بأنك تغوص في أعماق الفكر الإنساني وقد صاحبت هذا الكاتب في مجلداته الرائعة من "قصة الحضارة" التي آل على نفسه أن يدونها منذ فجر التاريخ حتى اليوم! .. عشت معه في تاريخ مصر والصين والهند واليابان وروما ومازلت أعيش.. وهو حينما يتحدث عن تاريخ أمة من الأمم القديمة لا يحدثك فحسب عن حروبها وإنما عن فنونها وعلومها وآدابها وفلسفتها وأسباب رقيها وعادتها وتقاليدها وديانتها فتشعر بأنك حييت معهم.. وليس من شك في أن هذا المجهود الفكري هو أهم عمل

قام به كاتب أوربي إلى الآن ولن يظهر بعده أشمل منه وأوسع الكاتب لم يترك ظاهرة من ظواهر حياة الشعوب إلا وقد تناولها بالبحث والتنقيب ثم سردها في متانة وقوة ووضوح.. وقد عشت معه أيضًا في كتاب أخر له وهو الجزء الأول من "مباهج الفلسفة" الذي علق عليه كاتبان من كتابنا وهما أستاذنا "العقاد"، وأستاذنا "أنيس منصور" وقال عنه العقاد أيضًا أنه "كابن رشد" تمامًا الشارح الأكبر في سرد الفكرة ونقدها نقدًا نزيها.

والجزء الأول من "مباهج الفلسفة" حافل بشتى الموضوعات الرائعة ولقد استطاع ديورانت أن يجعل الفلسفة تهبط إلى صميم مشاكلنا في الحياة وتعالجها علاجًا واضحًا فتهافت عليه الناس في أمريكا تهافتًا واضحًا ولست أدري هل بلغ التهافت هنا في مصر مثل أمريكا أم مازلنا عمالقة في الجسم أقزام في الفكر؟! إنك لو صحبته في هذا الكتاب.. لشعرت بالخصوبة لألك لا تصاحب ديوارنت وآراء حسب ولكنك تعيش مع عمالقة الفلسفة وآرائهم في الروح والمادة والحب والمرأة.. وانحلال الزواج!

وهذا الكاتب العملاق يختلف عن "هكسلي، ورسل".. بينما هاذان يؤمنان بالعلم إيمانًا شديدًا نجد ديورانت يرى أن أشياء مازال يعجز العلم عن حلها وتفسيرها تفسيرًا كاملًا فهو ينقل لنا رأى أحد علماء الطبيعة.. ليدل هذا الرأي على أن العلم مازال عاجزًا عن التفسير الشامل الكامل!

".. إن عناصر الذرات التي تنحل تفني تمامًا تفقد كل صفة للمادة بما في ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها الأساسية ذلك أن ليزان يعجز عن وزنها ولا يستطيع شيء أن يعيدها إلى حالة المادة فقد اختفت في عظمة الأثير..

والحرارة والكهرباء والضوء إلى غير ذلك تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفاءها في الأخير.. والمادة التي محل تخرج عن ماديتها بمرورها في حالات متتابعة تنزع منها تدريجيًا صفاتها المادية حتى تعود في النهاية إلى الأثير الذي لا يمكن وزنه ذلك الأثير الذي يبدو أنها نشأت عنه..

الأثير.. ولكن ما هو الأثير؟ لا أحد يعرف، وليس الأثير فيما يقول "لورد سالسبورى" :الأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث فهو غامض غموض الشبح أو الروح.. وافترض العالم الكبير "ألبرت أينشتين" وجود الأثير حينها أعاد تفسير الجاذبية وعزم أخيرًا أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقول الأثير. ويقول الأستاذ ادجتون حجة في هذا الموضوع ليس الأثير نوعًا من المادة فير لامادي. ومعنى ذلك أن شيئًا لا ماديًا يحيل نفسه إلى مادة بواسطة بعض الالتواءات الغامضة. ويصبح ذلك الذي لم يكن له بعد أو ثقل. بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض مادة متحيزة ويمكن أن توزن وهنا يتساءل ديوانت متعجبًا.. اهو اللاهوت قد أعيد.؟ أم هو علم مسيحي جديد؟!

أما الكتاب الآخر وهو الجزء الثاني وقد قام بترجمته الأستاذ الكبير "أحمد فؤاد الأهواني".. فهو يشمل عدة أبواب في فلسفة التاريخ وفلسفة الدين.. والسياسة.. والحياة والموت أما باب فلسفة السياسة أو الباب الذي وجدت فيه اللذة والأخصاب معًا ويبدً المؤلف هذا الباب "بدين الحرية" المطلقة وعباد هذه الحرية فيستعرض آراء روسو ونيتشه وبنتام

ومل.. وجودين هذا المفكر الذي رأى أن الطبيعة البشرية بما فيها من فضيلة كامنة كافية لحفظ النظام. دع جميع القوانين تلغى تجد أن البشرية تتقدم في الفكر والخلق معًا وذهب نيتشه أيضًا بدعوته إلى زوال الدولة وحينما تزول تظهر بشائر وأنوار الإنسان الأعلى ولكن "ديوارنت" يخالف هؤلاء الداعيين إلى الحرية المطلقة وزوال الدولة وبين ذلك بالحجج والبراهين في قوله، إن طاعة القانون تنشأ عن طريق النقل الاجتماعي أكثر مما تنشأ عن طريق الدوافع الفطرية في البشر ونحن فرضويون بطبيعتنا ومواطنون بالإيحاء وأن الجزء الذي يفكر في الإنسان ليس هو الإنسان بل الطائفة الاجتماعية و لقد قال "نابليون" إن الإنسان ثمرة البيئة الأخلاقية وبالوراثة البيولوجية ترتبط بماضينا الحيوان وبالوراثة الاجتماعية نرتبط بماضينا الإنساني.. كما أن تعقيد الحياة المستمر في النمو قد قيدنا إلى كل موحد توحيدًا عظيمًا وانتزع منا ذلك الاستقلال للأجزاء ما كان ميسورًا من قبل حين كانت كل أسرة تكفي ذاتها بذاتها اقتصاديًا.

ولو أن أدوات الإنتاج ظلت على بساطتها كما كانت أيام البدواة، جاروفا وقطعة من الأرض لما تضخمت الدولة فأصبحت غولًا مخيفًا يخيف حياتنا الحقيرة.. إذ عندئذ كان يمكن لكل إنسان أن يمتلك آلاته ويتحكم في ظروف حياته الأرضية وكانت حريته تكون قد احتفظت بمقوماتها الاقتصادية الضرورية ولم تكن الحرية السياسية قد أصبحت المساواة خدعة حقيرة غير أن الاختراعات جعلت الآلات أكثر تعقيدًا فميزت بين الناس وقدرتهم حسب قدرتهم على استعمال أو إدارة أو امتلاك الآلات الأدق

والأكبر وانتهى الأمر بشكل طبيعي جدًا إلى تركيز ملاك الآلات في بضعة نفر واختفى الاكتفاء الذاتي.. وأصبحت الحرية لفظة من شعارات الساسة وبقية من مخلفات الماضي تمجد كل عام كسائر أمواتنا الأعزاء!

ثم يتحدث المؤلف عن "الحكومة المثلى" في رأيه فيقول في عبارة رائعة لابد أن يأتي زمان يدرك فيه الناس أن أعلى وظائف الحكومة ليست التشريع بل التهذيب.. وليست سن القوانين بل بناء معاهد العلم فيرشد أعظم الحكام ويوحى كما يفعل أبرع المعلمين عن طريق التثقيف أكثر من النواهي والأوامر التي تدعو إلى العدوان سيكون شعار الحاكم ملايين الجنيهات للتعلم ولا مليم واحد للإجبار.. إلى هنا تنتهي جولة الكاتب حول مبدأ الحرية المطلقة وراية فيها ثم يبدأ بعد ذلك في الحديث عن فساد الديمقراطية.

والسبب العامل في إخفاق الديمقراطية هو شيوع الجهل.. وفي هذا الصدد يقول "إمرسون". إن بلاهة الناس داعية على الدوام إلى أن تسفر القوة عن وجهها ولقد أيدت اختبارات الذكاء رأي الذين راقبوا الانتخابات خلال العشرين سنة الماضية فقد ذهبت نظرية الديمقراطية إلى أن الإنسان كان حيوانًا ناطقًا ولاريب في أن بعضكم رأى هذه العبارة تجري في كتاب من كتب المنطق غير أن الإنسان في الحقيقة حيوان انفعالي وعاقل أحيانًا!

ويمكن أن يخدع الإنسان بطريق مشاعرة إلى حد الرضا التام،وقد يكون من الصواب كما ذهب ليكونون في اعتقاده أنك لن نستطيع

استغفال الناس كل الوقت ولكنك تستطيع أن تستغفل عددًا كافيًا منهم لتحكم دولة كبيرة ولقد حسب بعضهم عدد المغفلين على سطح الأرض فقدرهم بنسبة مائتين في كل دقيقة وهذا نذير سوء الديمقراطية، وكون الإنسان "حيوان انفعالي" نظرية لم يتحدث عنها "ديورانت" وحده وإنما بحثها كاتب آخر وتكلم عنها في وضوح وهو "غوستاف لوبون" الكاتب الفرنسي الشهير إلا أنه يختلف معه فديورانت يقول أن الإنسان بمفرده منفعل لكن د لوبون، يقول في كتابه "روح الجماعات" إن الإنسان بمفرده لا يمكن أن يكون منفعلًا فتلاش الذات الشاعرة وهيمنة الذات غير الشاعرة هي صفات الفرد في الجماعة.. والإنسان إذا ما غدا جزءًا من الجماعة هبط إذن عدة درجات في سلم الحضارة والإنسان وهو منفرد قد يكون شخصًا مثقفًا أما وهو في الجماعة يكون همجيًا منفعلًا يتصف بها عند الفطريين من الغريزة!.. ثم يمضي "ديورانت" قائلًا..

ومن الواضح أن الديمقراطية ليست وحدها هي المخفقة بل نحن أجل نحن! فقد غرب عن بالنا حين جعلنا من أنفسنا حكامًا أن نجعل من أنفسنا أو أذكياء ظننا أن القوة في وفرة العدد فنحن لا نطلب من نوابنا المنتخبين عظمه أو بعد نظر بل إنما نطلب لسانًا ثلابًا وبعض السياسة التي تبعد شبح الجوع.

وهذا الرأي يشبه رأي غوستاف لوبون أيضًا حينما قال في "باب الجماعات الانتخابية" أن النفوذ هو الصفة الأولى التي يجب أن يتحلى بها المرشح ولا يمكن أن يقوم مقام النفوذ الشخصي إلا نفوذ الغني، حتى

النبوغ حتى العبقرية ليسا عنصري نجاح. وكان فولتير يؤثر الملكية على الديمقراطية على أساس أننا في الملكية لا نعلم إلا رجلًا واحدًا أما في الديمقراطية فينبغي أن نعلم الملايين الذين يختطفهم الموت قبل أن نتمكن من تعليم عشرة في المائة منهم.

وحينما تسود الديمقراطية تسود روح المحافظة وعدم التجديد. ولقد تنبأ السير "هنري مين" فقال (من أغرب الأفكار العامية القول بأن انتخابًا واسمًا شاملًا يمكن أن يدفع عجلة التقدم والأفكار الجديدة والمكتشفات الجديدة والاختراعات الجديدة وفنون الحياة الجديدة.. الحق أن مثل هذه الانتخابات سينتج ضربًا سيئًا من المحافظة فعلينا إذن أن نسلم للإنجليز المتعصبين لفكرة أن الديمقراطية تبدو معادية للعبقرية ونافرة من الفن،لأنها تغلو في تقديرها الأمور التي تقبلها أفهام أوساط الناس وقد يكون الاستبداد الفكري الأغلبية من عدة مثل استبداد الملوك السياسي ففي بعض الولايات الأمريكية نجد أن القليل من المعرفة شيء خطر إذ مادام جميع الناس سواسية فإن عدد الأصوات يجب أن نثبت قواعد أي حقيقة ويحيط أي عرف بسياج من القداسة وليست الديمقراطية ثمرة عصر الآلة فيسب أو ثمرة تحكم عن طريق الآلات فقط! بل تحمل في طياتها أفزع الآلات على الإطلاق وتلك هي مطرقة هائلة من الإرغام الجاهل الذي يمحو التفاوت ويسحق العقل الذي يشذ ويثبط عزيمة الامتياز الخارج عن التقاليد!

ثم يمضي ديوانت ليحدثنا أيضًا عن أساليب الديمقراطية، فيقول لقد اختير الشيوخ والنواب لما لهم من مقدرة سياسية معناها الأمريكي أي القدرة على تعيين أنفسهم والإعلان عنها والتهليل وانتخاب أنفسهم فهم يملكون هذا الضرب من القدرة بشكل متقدم ومتخصص جدًا وهم عادة إمعات يسهل خضوعهم للنظام ذوو ضمير مطاط، خال من الأصالة والعبقرية وفوق كل شيء العبقرية في فقد السياسة فقد أصبح واضحًا في هذا الزمان أن فرصة بلوغ الرجل في المناصب المالية هي اشتهاره بالتفاهة..

وبعد أن يتأمل المؤلف الكبير أمراض الديمقراطية وأخطاءها.يمضي لكي يضع العلاج فيقول ويتساءل ماذا نحن فاعلون؟!

يجب أن يفهم حتى المصلح الثائر أن ما يمكن عمله قليل ولا يمكن عمل شيء بسرعة إن أعظم خطة نتمناها سيكون فيها من الإسراف الشديد الذي يغرف من ثروتنا الوطنية والخاصة الأنفاق منها على التعليم والاختراع والبحث العلمي كي تحسن عقولنا وتنقص عدونا وتجعل الشغل اليدوي أغلى من القوة الميكانيكية وتحل الطبقة العاملة البروليتاريا وتحرر البشرية لمواجهة أعباء المجتمع الأعظم وليس ثمة مع الأمد الطويل أي حل سوى التعليم فإلى أن يصبح الناس أذكياء فلن تتخلص المدن من الشرور ولكن إذا كان العالم لم يفعل هذا من أجل أفلاطون، فالأشبه أنه لن يفعل هذا لأجلنا وقد رأينا أي حيل شيطانية تلعبها نسبة المواليد بالتعليم وأليق شيء بعد ذلك أن ندعو أفضل الناس في البلاد علمًا وأعظمهم قدرةً بعد انتخابهم في كل مهنة بواسطة أعضاء تلك المهنة ليلقي بعضهم بما للنظر

في تجديد دستورنا والتوصية بإصلاحات جديدة للكونجرس والولايات وتأييد هذه التوصيات بهيبة المهن التي يشتغلون بها.

أما أفضل خطة ثالثة فهي تجري كالآتي!

إن آفة الديمقراطية الحديثة في الساسة والتعيين في المناصب فلنلغ الساسة والتعيين!

لاريب في أن كل إنسان كان في الأصل طبيب نفسه وأن كل أسرة كانت تصف لنفسها الأدوية إلى أن تجمعت المعارف الطبية ونمت بمجموعة الأدوية فأصبح من المستحيل على الشخص المتوسط مجاراة (الفارما كوبيا)– "الأقرباذين دستور الأدوية" ونشأت طبقة خاصة من الناس خصصت جميع أوقاتها الجدية لدراسة علم العقاقير وأصبحوا أطباء محترفين ولحماية الجمهور من الذين يمارسون العلاج بغير تدريب.

ومن أولئك المثابرين على هواية إجراء التجارب من الذين أتموا دراسة الطب درجة علمية يطمئن لها الجمهور ولقبًا مميزة وقد بلغنا الآن الحد الذي يعد فيه خارجة عن القانون كل من وصف تذكرة دواء بدون الحصول على مثل هذا التدريب ولم تعد نسمح لأشخاص لم تهيأوا للعلاج أن يباشروا أمراضنا الشخصية أو أن نخاطر بأرواحنا فنحن نطلب من المعالج سنوات طويلة يقضيها من عمره ينقطع فيها للدرس كي يصف لنا تذكرة دواء أو يخلع لنا سنة أما أولئك الذين يعالجون آفاتنا غير الجسمانية ويخاطرون بمئات الملايين من الأرواح في زمن السلم وزمن الحرب وتوجد رهن إشارتهم جميع أملاكنا وأموالنا فليس مطلوبًا منهم أي إعداد خاص إذ

يكفي أن يكون أحدهم صديقًا للرئيس مواليًا للحزب وسيمًا أو لطيفًا يحسن الترحاب يجيد النزال ويطيع الأوامر في هدوء ويسخر في بذل الوعود حسب الظروف وليس من المهم بعد ذلك أن يكونوا من الجزارين أو الحلاقين من محامي أو محرري الأرياف من باعة المنور أو تجار الخنازير ما داموا قد ولدوا في كوخ من أكواخ أمريكا في المسلم به أن لهم حقًا إلهيًا في أن يكون أي فرد منهم رئيس جمهورية.. ولنتخيل صورة أبهج لنفرض أن جامعاتنا العظيمة التي تشتمل على بذور أمريكا المنقذة قد أضافت إلى كيانها , مدرسة للإدارة السياسية، وأنها لن تكون مدرسة نظرية بمقدار ما هي مدرسة عملية خاصة بالتفصيلات المحسوسة ولا مدرسة لمناقشة التاريخ السياسي أو فلسفة الدولة أو الملكية في مقابل الجمهورية!

* * *

بل مدرسة تنزل بطلابها إلى الميدان الفعلي للإدارة المدنية ستكون مدرسة تنظر في مشكلات المدينة لا كما ينظر إليها ساسة الشوارع! بل كما ينبغي أن يفكر فيها العالم أو المنقذ الذي رفعته الدربة والمقدرة إلى الحد الذي يرى فيه الإدارة فتنة فلو أن مثل هذا المنهج كان من المنهج والأمانة كمنهج مدرسة جيدة في الطب فلن يجذب من الناس إلا ذوي العقول العلمية، وسيفزع منه بشكل عجيب القوم الذين يرتفعون اليوم عن طريق بيع أنفسهم وتنميق أساليبهم.. هذا كله في حدود الإمكان بل اليوم تقدم جامعاتنا الكبرى برامج تصلح أن تكون أساسًا بهذه المدارس الإدارية.. غير أن الخطوة التالية في الإصلاح الذي تفترضه للديمقراطية

يتطلب خيالًا أوسع.. ولنفرض أنه في الوقت الذي نمد فيه هذه المدارس رجالًا للحكم كانت هيئات أخرى قد أعدت الشعب بالدعاية المقروءة والمسموعة لهذه الفكرة الجديدة التي ستتطلب حاجة حكامه للتعليم والتي تقدم مرتبات تتناسب مع المقدرة المطلوبة في الحكومة الحديثة.. ومن الواضح أن رأيًا عامًا قد يتكون بحيث يشعر أي حزب سياسي إنه ليس من الحكمة تعيين أي رجل لم يعد هذا الإعداد الخاص للمناصب المدنية ولا يبعد أن يأتي وقت يستغني فيه عن التعيين أصلًا كما هي الحال في الدستور ويقدم الموظفون الإداريون أنفسهم مباشرة مرشحين للانتخاب و يجب أن يقتصر اختيار الشعب على هؤلاء وأن للشعب مطلق الحرية الكاملة في اختيارهم.. ولا نزاع في أن عالمنا الصغير له خلله الذي لا يجب موازنته بالمدن الفاضلة.

ونحن حين نستبدل الجامعات بالصالونات والفنادق لا يغيب عن بالنا إنه حتى الجامعات يمكن أن يتطرق إليها الفساد والمتخرجون منها يمكن أن تشتري ضمائرهم وتفسد ذممهم ومع ذلك فالمسألة مسألة اختلاف في الدرجة إذ المفروض أن الرجل الذي يحصل على درجة علمية! أو الرجل الذي يبلغ من الشغف والشجاعة حد اختيار مهنة تتطلب إعدادًا طويلًا وشاقًا يكون عنده من الفخر بالمنة ما يجعله يغار على شرفه ويخلص لعمله ولا ريب في أن مستوى الأخلاق أرفع بين العلماء منه بين الساسة! وعلى الرغم من وجود بعض اللصوص بين صفوف الأطباء فمهنة الطب من المهن القليلة التي يسمح فيها الأخلاق أن تتدخل للكسب...

وليس غرضنا في هذا المجال أن نجعل الأنهار تتدفق خمرًا والرياح تهمس موسيقى ونغم بل أن نجعل أي حكومة من الاستطاعة والأمانة بمقدار ما تطيقه السيرة البشرية فهذه هي المشكلة السياسية وهي المشكلة التي تعنينا هاهنا.. ونحن نميل في هذه الأيام إلى اعتبار الفساد والجهل مزيتين طبيعيتين للمنتخبين وأن الفكرة التي افترضناها هاهنا فكرة مغرقة في القدم فهي حلم الفلاسفة والمفكرين حلم "سقراط" و"أفلاطون" في جمهوريته حلم "فرنسيس بيكون" و"توماس كارليل" و"فولتير" و"آرنست رينان" ولعلها ليست شيئًا أكثر من حلم ولعلها قد تكون حقيقة حين نكون جميعًا أحلامًا ولا ريب أنها لن تكون لمدة طويلة أكثر من حلم إذ لا بد من عشرات السنين تنفق في التعليم كي تنتج التغييرات اللازمة في عقل الجمهور وأن نبذل مجهودًا صادقًا لرفع الكفايات ونكسر شوكة عداء الديمقراطية للمعرفة!

ثم يمضي المؤلف الكبير لكي يتحدث عن الحكم الأرستقراطي أو فن الحكم عند الأرستقراطية! ويقول لنستمع لرأي الأرستقراطي بعض الوقت بغير أن تقاطعه مبعدين بيننا وبين أنفسنا راية المتحيز ومتعلمين منه حتى حين نختلف وإياه! يقول الفيلسوف الألماني "فردريك نيتشه" أن الحكم يحتاج لا إلى الذكاء فحسب بل إلى الدم ولنض مع "نيتشه" فنجده يقول.. إن الرياسة تحتاج إلى أسرار أرستقراطية كبيرة لا تقاليد استقرت زمنًا طويلًا في الإدارة والحكم إلى الأنساب العتيقة التي تضمن لأجيال مدة بقاء الإدارة الضرورية والغرائز الأزمة... وهذا هو السر في احتجاج الأرستقراطي على قول القائلين بالمولد العارض..

فالمولد ليس اتفاقًا وخبطة بل نسبًا متسلسلًا وخلاصة قرون وبشير المقدرة والذكاء.. ألست ترى أنها اليوم نهتم اهتمامًا كبيرًا بسلالات الحيوانات فتفحص بعناية لا أصولها المباشرة فقط بل أسلافها البعيدة فالأرستقراطي يهتم مثل هذا الاهتمام بأنساب الإنسان ويصر على تعظيم أثر الوراثة كما يؤيد الديمقراطي أثر الفرصة والاشتراكي أثر البيئة.. وهذا هو سر عزوفه عن الزواج بامرأة أقل منه مرتبة وعلة نفوره من الطبقات الأخرى إنه يدرك أن التهجين يضعف الصفات ويزعزعها فترة من الزمن مع أن التهجين قد يكون مرغوبًا فيه لنمو جنس جديد معقد..! وحينما يستعرض دول ديورانت، مبدأ الوراثة السياسي يسفهه ولا يؤيده فهو يقول إن مبدأ الوراثة السياسي للقبض على زمام الحكم يؤدي إلى الانحلال فهو يحمي العجز وينقله عبر الأجيال. كما إنه لا بد أن يعمل على وقف الموهبة إن كان صاحبها بغير لقب ومن ناحية أخرى لإنتاج الحكام الأكفاء يجب اختيار بعض الناس منذ مولدهم كي تمنح لهم الوقت الكافي لنمو كامل وصحيح في العقل والخلق والعمر قصير جدًا لا يتسع لتحصيل الثروة والثقافة معًا فينبغي أن نتخلى عن أحداهما منذ البداية ولا يمكن أن نستغني عن أيهما من أجل ذلك كان من مصلحة الإنسان من أن يتحرر قلة من الناس من ضروريات الكفاح الاقتصادي التي تفت في العضد إن إمكان العيش بغير عمل هو الحد الضروري للتقدم العقلي ثم يمضي المؤلف مع أراء الأرستقراطيين ليستمع إليهم "فرينان" يقول كل حضارة فهي من عمل الأرستقراطية وكان "رينان" يخشى أن يفسد العلم في ظل الديمقراطية عندما يحدث أن يشك الجمهور في معناة ويقول "سوفنر" الطبقات هي التي

تنتج التنوع والجماهير هي التي تحمل الأخلاق الموروثة إلى المستقبل.

ويقول غوستاف لوبون أيضًا: يدل التاريخ على أن جميع التقدم الحاصل حتى الآن يرجع إلى هذه القلة الممتازة أن الذين يدعون العباقرة يفذون سير الحضارة والمتعصبين وأصحاب الأوهام يخلقون التاريخ وهذا صحيح في رأي ول ديورانت.. ثم يمضي دورانت يحدثنا عن فوضى الديمقراطية فيقول إن دعوى المساواة مجلبة الحرب عنيفة لا ينقطع من أجل ذلك كانت الديمقراطية مطية النزاع دائم في السياسة والاقتصاد وفي أحوالنا النفسية حتى لتجد الجهد والضيق مكتوبين على كل وجه وبفيضان كل بيت وحين يعترف المجتمع بتفاوت الناس الطبيعي في العقل والإرادة ويلغي نفاق النظم المتساوية فقد يمكن أن يعرف الناس السلام مدة أخرى عند أن سينتقل المجتمع من المنافسة إلى المجاملة ومن الكم إلى الكيف ومن الخيال إلى الذكاء ومن الثروة إلى الفن تم يمضي بعد ذلك ليحدثنا عن الأرستقراطية و يعارضها.. ولا يترك الرجل الأرستقراطي يتحيز لمبدأ.. لا يتركه يبشر بأن الأرستقراطية هي المنقذة فلقد أغفل الأرستقراطي كثيرًا من النقط! ولنفرض أن الأرستقراطية تنتج حكامًا أرفع ورجالًا أنفذ بصرًا وأرحب خططًا فأي ضمان لنا نعتمد عليه في الطبيعة البشرية أو من التاريخ يجعلها نثق في إخلاص هذا الرئيس الماهر للصالح العام؟!

فالأرستقراطيات قل أن تصنع من الشعب هذا الكل العضوي من الخدمة المتبادلة كذلك الذي يربط بين المخ والبدن (إذا استعملنا موازنة أرستقراطية قديمة) فهي تنفق كثيرة من وقتها في إنزال الأسر الحاكمة

المنافسة عن العرش أو في الاحتفاظ لا نفسها بالسلطان ما لا يسمح بذلك الانقطاع اليقظ من الأجزاء الكل ذلك الانقطاع الذي تمتاز به قيادة المخ ولنذكر في هذا الصدد إدمان الأرستقراطيات الحروب التي كانت كالصيد بالنسبة إليهم ضربا من الرياضة والشعب المحارب ليس إلا مجرد كلاب للصيد!

إن القوة باعثة على الفساد بمقدار انعدام مسئوليتها ومنزلتها والأرستقراطيات قاسية ما كان أهل إسبراطة بالنسبة لعبيدهم أو الملاك الإنجليز والفلاحين في إيرلندا.. أي مجد في الثقافة الأرستقراطية مكن أن يزل إلى وحشية الرومان مع اتباع سبارتاكوس.. لن يكون الرجل صالحًا لحكم رجل آخر بعير رضاة وهنا نجد أن المثل الأعلى الديمقراطي ولو أنه ليس إلا مثلًا فقط يفتح آفاقًا أبدع إذ يشجع كل رجل على أن يكون مسئولًا عن نفسه فيصلب عودة وتتسع نظرته..

وهذا صحيح، كما يرى ديورانت، فإن وجود هذا الوضع أي أن وجود الاستبداد كان سببًا من أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية قبل الميلاد فإن الاستبداد بصورة واضحة أنضب معين قدرة المواطن الروماني على القيام بأعباء الحكم ولما عجز الروماني عن التعبير عن إرادته السياسة إلا بالعنف فقد عن أجل ذلك اهتمامه بشئون الحكم وانهمك في أعماله ومتعه أو في نجاته الفردية!

ولقد قال "ميكافئيلي" في كتابه "الأمير" إن البلاد التي كانت متعودة حكم أسرة مالكه ويقصد هنا طبعًا أن البلاد المحكومة حكمًا استبداديًا

مطلقًا يسهل على الفاتح امتلاكها لأنها مفطورة على الطاعة أما إذا كانت حكومة البلاد جمهورية ويقصد هنا البلاد التي تتمتع بحريتها كاملة لا يسهل على الفاتح امتلاكها وينصح ميكافيلف- في كتابه هذا- الحاكم بتخريبها لأن تخريبها خير وسيلة لامتلاكها لأنها أن تنسى حريتها القديمة ولا يطفئ ذل الأسر من نفوس أهلها جذوة الحرية..

وبعد..

قد يعتقد الكثيرون أن هذا الكاتب أرستقراطي المذهب، ولكنه في الحقيقة ليس أرستقراطيًا بالمعنى الذي تفهمه وهو أنه بريد الكونتات.. وليس ديمقراطيًا إلى الحد الذي يسمح فيه لأي إنسان أن يكون مثلًا لحفنة من الناس مادام يحمل جنسية بلاده وبلغ السن القانوني ودفع التأمين. فهو يقول في عبارة رائعة تفسر مذهبه السياسي أروع تفسير الأرستقراطية هي حكم الأفضل وليس من الضروري أن يكون الحكم بالوراثة فهذا المبدأ لا أو من به على الإطلاق فإذا كنا نرغب الأرستقراطية ونضيق لضياعها فليس معنى ذلك أننا نهفو إلى حكم "الدوقات والكونتات" وهذه السلالة بل معنى ذلك أننا نريد أن يحكمنا أقدر الناس فقط!

## هكسلي المفكر الديمقراطي

الحاكم المستبد كالقرد الذي كلما علا في تسلق الشجرة: تفنن في ألاعيبة..

"الدوس هكسلي"

"الدوس هكسلي" مفكر إنجليزي معاصر، وهو برغم جنسيته الإنجليزية عالمي التفكير نظر نظرة فاحصة ومتقنة إلى ما يسود العالم من قلق وحروب وفوضى وظلم واضطراب ولم يجد العلاج إلا في شيء واحد.. الديمقراطية الصحيحة المنقذه المعيدة إلى الإنسان في كل زمان ومكان حقه ورأبه ومكانته ورخاءه.. وفي هذا الكتاب القيم "الوسائل والغابات".. الذي نجول معه جولة صغيرة سنعيش مع "هكسلي" ونلمس أراءه وخططه ونتبين مدى ما يراه من الوسائل لإنقاذ البشرية.. التي أخذ على عاتقه أن يدفع عنها ويحنو عليها.. راغبًا أن تشرق عليها شمس الحرية.. والسلام.. وهو حينما يتكلم عن الديمقراطية هذا المبدأ الذين يدين به ويعتنقه يتحدث عن طبيعة الدولة الحديثة، فيقول.. في كل أمة قله حاكمة وكثرة محكومة.. ويتشبع أفراد الطائفة الأولى بحب النفوذ والسلطان وقلما يحرك نفوسهم الإحساس بواجبهم نحو المجتمع وهم عادة يتصفون بالكبرياء والقسوة والشر ومما يدعو إلى العجب أن المحكومين في أكثر الأحيان يتقبلون التبعية لأولى الأمر منهم دون ثورة أو اعتراض بل يسلمون الظلم والاستبداد والشعوب فلا تثور، فالقاعدة العامة هي الطاعة والثورة هي

الاستثناء أن من أهم حقائق التاريخ وادعاها للعجب ذلك الصبر الذي يتحلى به عامة الناس أن أكثر الرجال يحتملون مالا يحتمل ويطيقون مالا يطاق ويرجع ذلك إلى عدة أسباب أولها الجهل.. فان أولئك الذين لا يعرفون إلا أن يحتملوا الصواب والمشقات لا يدركون أن نصدهم من هذه الحياة الدنيا يمكن أن ينقلب إلى ما فيه خيرهم ومصلحتهم،وهناك عامل آخر ذلك هو الخوف فالناس قد يدركون أن الحياة شاقة عصيبة ولكنهم يخشون عواقب الثورة.. ثم إن إحساس الناس بضرورة التماسك الاجتماعي محملهم على تحمل الإذلال والمشقة دون ثورة أو عصيان كي أن العادة وسلطان الماضي لهما قوة لا تقاوم والخروج من المآزق يتطلب من المرء مجهودًا أكبر ما يستطيع أن يبذل يقول بوايس في كتابه، "دراسات في التاريخ والشرع" إن أهم ما يدفع الناس إلى الخضوع للقانون هو الكسل، فالكسل هو الذي يجعل الغني والفقير على السواء جامدًا لا يطمع في تغيير حالته أليس من العجب أن يتشبث الفقير بمركزه الوضيع كما يتشبث الغني بثروته.. ولذا فإني أرى أن من واجب المصلحين أن ينقذوا الناس من وحدة التراخي والكسل كما ينقذوهم من براثن الطمع والشره.. إن أي إصلاح لا ينقذ الجماهير من حمأة الخضوع لأصحاب السمطان لا يعد رقيقًا في نظام المجتمع!

إن الإشادة بفائدة الكسل والخضوع وتبريرها تبريرًا عقليًا من العقائد الفلسفية- فالشعوب تطيع حكامها- بالإضافة إلى الأسباب الأخرى تعتقد في بعض النظم "الميتافيزيقية الدينية" التي تلقي في روعهم أن الدولة

يجب أن تطاع وأن الثورة على أولى الأمر كفران بالله والدين مما كما أن الحكام من ناحيتهم قلما يقنعون بتحقيق أطماعهم رضى الناس أم سخطوا وإنما هم يطمحون في حكم الناس بالحق الشرعي أن أكثرهم يصل إلى منصب الولاية بالعنف والمكر والخديعة ولكنهم يحاولون بعدئذ أن يستندوا في حكمهم على تأييد الشرع والقانون وبعضهم يزعم أنه يحكم بالحق الإلهي فيعزز بذلك مركزه أمام المحكومين ويبرر لنفسه أمام ضميره القلق حقه في الحكم والسلطان..

إننا الآن نعيش على أرض كروية مستديرة، فيستطيع المرء أن يسافر من باريس إلى روان عن طريق شنغهاي، ولكننا نعيش زمن مسطح مستوى ولن يستطيع المرء أن يصل إلى هدف تاريخي معين إلا إذا اتجه رأسًا إليه ومهما أمعن السير في الطريق المضاد فلن يبالغ غايته من الأيام والهدف الذي يرمي إليه المصالحون الاجتماعيون هو أولًا الحرية ثانيًا العدالة.. ثالثًا التعاون السلمي بين الأفراد المتحررين الذين يحملون تبعاتهم برغم تحررهم والذين يتوفر فيهم النشاط الجم والحركة الدائمة فهل هناك ما يدعونا إلى أن نعتقد أننا نستطيع أن نبلع الهدف عن طريق تجسس البوليس والرق العسكري وتسلط طبقة على طبقة وتكميم الأفواه وحبس الحريات وفرض نظام استبدادي للتعليم أننا لا نظن ذلك ولا نحسب أحدًا عاقلًا يظن ذلك.. أن الطريق السياسي الذي يؤدي بنا إلى ترقية المجتمع- ولنذكر أننا أن كنا نريد أن نبلغ أهدافنا فعلينا أن نسلك طرقًا أخرى غير الطريق السياسي- هو طريق اللامركزية والحكم الذاتي الذي يتحمل التبعات أما

الدكتاتورية التي تزغم أنها طريق قصير للإصلاح المنشود فلن تؤدي بنا إلى الغاية التي نحب.. سيبقى أن نقصد إلى الهدف بغير التواء فإن ولينا ظهورنا أطلنا المسافة التي تفصل بيننا وبينه.. وأقول ثانية أن الطريق السياسي لترقية المجتمع هو طريق اللامركزية والحكم الذاتي المحمل بالتبعات! غير أن الظروف الراهنة لا تتيح لأمة أن تسلك هذا الطريق وذلك أنا لدولة التي تستعد للحرب لا يسعها إلا أن تجمع السلطة في يدها لأن توحيد القيادة ضروري قبل إعلان الحرب.. إن الأمة التي تريد أن تستخدم الحرب الحديثة أداة سياسية لا بد لها من سلطة تنفيذية شديدة التركيز قوية النفوذ ومن ثم كان من التناقض في القول أن نتحدث عن الدفاع عن الديمقراطية بقوة السلاح فالديمقراطية التي تستعد استعدادًا جديًا لحرب علمية حديثة لا بد أن تتخلى عن ديمقراطيتها فالدولة التي تستعد استعدادًا صحيحًا الحرب لابد أن يحكمها حاكم مستبد مطاق.. قامت أن الأمة التي تريد أن تستخدم الحرب الحديثة أداة سياسية لا بد لها من سلطة تنفيذية شديدة التركيز قوية النفوذ ومثل هذه الدولة أقرب إلى إعلان الحرب من أمة السلطة فيها لامركزية والشعب فيها يحكم نفسه بنفسه ولذلك دواع عدة.. منها أن الديكتاتوريات قلا تكون آمنة وكلما أحس الحاكم المستبد بزوال سلطانه لجأ إلى العاطفة القومية يستغلها كي يقرى مركزه ومحاكمات الخائنين والمذابح الكبرى وما إليها في الحيل التي يلجأ إليها المستبد المطلق لإحياء حماسة شعبة الفاترة فان فشلت هذه الحيل لجأ إلى إعلان الحرب ومن ثم نرى أن المبالغة في تركيز السلطة أمر لا مندوحة عنه لنجاح الحرب كما أنها عامل من عوامل شن الحروب. وما دامت الدول المتمدنة تواصل

استعدادها للحرب فلا يحتمل البتة أن تتخذ إحداها اللامركزية سياسة لها أو أن تتوسع في مبدأ الحكم الذاتي.. بل على العكس سيزداد تركيز السلطة لا في الدول الديكتاتورية فحسب بل في الأمم الديمقراطية التي تنفذ روح الديمقراطية والحرية وهذه الحركة تجري الآن في الدول الديمقراطية فهي آخذة في التباعد عن المبادئ، الصحيحة ومقبلة على تركيز السلطة والاستبداد العسكري ولكل ديكتاتورية لغتها الخاصة وقد تختلف إحداها عن الأخرى ولكن أغراض الديكتاتوريات جميعًا واحدة. وذلك أن يكون الاستبداد سياسة مشروعة وأن يعترف القائمين بالأمر بالحق الإلهي في الحكم وهذه الأغراض البعيدة لا تقل إيذاء للناس عن البوليس أو رقابة المطبوعات وفي اللغة التي يستعملها الحكام المستبدون ألفاظ يبررون ما الجرائم والظلم وهؤلاء الحكام يصبون أغراضهم في قوالب لغوية تهيء المظلوم لتحل الظلم بل أنها لتجعله يعبد الظالم المجرم المجنون.

وقد اقترح علينا الفوضويون إلغاء الدولة، والواقع أن الدولة تستحق الإلغاء لأنها أداة تستخدمها الطبقة الحاكمة للاحتفاظ بامتيازاتها ولأنها وسيلة تمكن المولعين بحب السلطان من إشباع شهواتهم في التسلط والنفوذ كي تمكنهم من تنفيذ أحلامهم الخيالية بالمجد والعظمة غير أن الدولة في المجتمعات المعقدة رفعها المجتمع الذي نعيش فيه ولها وظائف أخرى نافعة تؤديها فمن الواضح مثلًا أنه ينبغي أن تكون في المجتمع هيئة مسئولة عن توحيد نشاط الجماعات المختلفة التي يتألف منها المجتمع ومن الواضح كذلك أنه سينبغي أن تكون هناك هيئة لها سلطة العمل باسم المجتمع

بأسره وإذا كانت (لفظ) الدولة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بفكرة الظلم الداخلي والاستبداد والحرب الخارجية وخضوع العامة إذا فلنطلق على هذه الأداة الاجتماعية اسمًا آخر، وليس هناك في الوقت الحاضر اتفاق على هذا الاسم ولذلك سوف أحافظ على استعمال هذه الكلمة المرذولة حتى نتفق على اسم جديد.. ولنبدأ الآن في تطبيق الحكم الذاتي على دوائر الصناعة فلقد بحث الاقتصادي الفرنسي "هيا سنت دبريل" طريقة هذا الحكم على هذه الدوائر وقدم لنا ثروة من الأمثلة المحسوسة في كتاب قيم عنوانه "لكل فرصته".

يقول "دبريل" إن أكبر دوائر الصناعات يمكن تنظيمها بحيث تتألف من عدد من الجماعات المستقلة في حكمها والمتحدة في عملها في آن واحد. وكل جماعة منها تتكون من نحو ثلاثين عضوًا وكل جماعة تعمل في داخل المصنع عمل المقاول الثانوي يتعهد بأداء جزء معين من العمل– وللجماعة حق توزيع الأرباح بين الأفراد ولها كذلك حق حفظ النظام في داخلها وانتحاب ممثليها وزعمائها.. أن مثل هذا النظام يجبذه العمال أولًا لأنه يعطيهم قدرًا من الاستقلال ثانيًا: يؤدي هذا النظام إلى زيادة الإنتاج ولهذا النظام مزايا أخرى مثل تدريب الأعضاء على التعاون وتحمل التبعات ولكن أكثر المصانع في ظل النظام السائد أشبه ما تكون يدكتاتوريات صغيرة يميل بعضها إلى الخير وبعضها إلى الشر.. وطاعة المال لرؤساء فرضوا عليهم بغير انتحاب محمه في كلتا الحالتين وهؤلاء المال قد يكونون من الوجهة النظرية تابعين لدولة ديمقراطية حقه ولكنهم في الواقع من

الوجهة النظرية ينفقون حياتهم رعايا لحكام مستبدين هم أصحاب المصانع التي يعملون بها ومشروع "دبريل" يدخل الديمقراطية الحقة داخل المصنع وبغير هذا المشروع أو ما يماثله لا فرق عند العامل بين أن يكون المصنع ملكًا للدولة أو ملكًا لفرد أو جمعية تعاونية لأن طاعته واجبة في جميع الأحوال ولكن إذا وضعنا مشروع "دبريل" موضع التنفيذ ظفرنا برضى العامل عن الإدارة وذلك لأن العامل يعلم في قرارة نفسه إنه هو الذي اختار رئيسه وأنه اشترك في وضع لائحة المصنع فيو مطمئن من الناحية النفسية.. وقد برهن "دبريل" على أن الحكم الذاتي داخل المصنع يؤدي إلى زيادة الإنتاج.. إذا في البلاد التي تحسن فيها تربية الرجال والنساء وتدريبهم والتي تعود الناس فيها النظم الديمقراطية لا يؤدى الحكم الذاتي داخل المصنع إلى انهيار النظام وقلة الإنتاج اللهم إن كان أولو الأمر يريدون تعبئة الأمة كلها رجالها وصناعاتها للأغراض الحربية العسكرية حينئذ تفشل اللامركزية لأن تعدد الهيئات المستقلة يجعل مهمة الحاكم المطلق عسيرة شاقة ومن هنا كانت الحروب عاملًا قويًا في تركيز السلطة والحكم وإلغاء النظام اللامركزي.

وسأعالج في فصل مقبل هذا الشر المستطير أي "الحروب" وقد بين لنا "ديربل" أيضًا أن أكبر الهيئات الصناعية يمكن أن تنظم بحيث تتألف من عدد من الجماعات المتحدة والمستقلة في نفس الوقت استقلالًا ذاتية وقدم لنا البرهان على أن مثل هذه البيئة يزيد إنتاجها على غيرها من الهيئات المركزة وقد طبقت هذه الديمقراطية في بعض المصانع الكبيرة وأنت بأطيب

الثمرات ولكن هذه الديمقراطية الصناعية تعارض ونظام الرأسمالية والاشتراكية الوطنية لأن الرأسمالية تخاف عددًا من صفار الديكتاتوريين لكل منهم ليسيطر على مملكته الصناعية الصغيرة كما أن الاشتراكية الوطنية تطلب لأدارتها ديكتاتورًا عظيمًا نتركز السلطة والنفوذ في يده ويملك زمام السلطة على الشعب بأسره مستعينًا بعدد من العملاء البيروقراطيين.. أن الهيئات المتعاونة قائمة بالفعل وعملها يسير بيسر تام فإذا نحن أكثرنا من هذه الهيئات ووسعنا من دائرتها فلن يكون ذلك عملًا ثوريًا ولن يبعث على المعارضة التي يثيرها مبدأ جديد على الناس كل الجدة.. وجلي أن الهيئات الصغيرة المستقلة لابد لها من سلطة عليا توحد جهدها وتنسق عملها فما الذي يكفل لنا أن هذه السلطة العليا لا تتحول إلى ديكتاتورية مستبدة؟! الواقع أن هذا التحول شديد الاحتمال في الدول التي تأهب للحرب إن الروح العسكرية تفسد أي نوع من أنواع الإصلاح وفي الأمم التي تستعد للقتال كثيرًا ما يتجه الإصلاح الذي رمى إلى نشر اللامركزية والروح الديمقراطية اتجاهًا حربيًا فيعزز مركز المستبد الديكتاتور أو الأوليجاركية الحاكمة.

وإذا ما ساد العالم جو عسكري اتخذ الديكتاتور من الحاجة إلى الدفاع معذرة الاستيلاء على السلطة المطلقة، ثم يزول شبح الحرب ولكن المستبد يتشبث بنفوذه ويسيء استخدامه لأن ذلك من شم النفوس فما هو السبيل لنتخلص من هذا الشر؟! خير سبيل لذلك تعويد الطفل على الاعتدال وهو ما يزال في دور التربية إن المجتمع الذي نعيش فيه يشجع

على الاستزادة من النفوذ والسلطان لأن صاحب النفوذ مهاب مقدس ويكفي لتأييد ذلك أن تعلم أن الكتب التي كتبت عن "نابليون" أكثر من التي كتبت عن أي رجل آخر فإذا عسى أن تكون أحلام الرجل الذي يرى أن صاحب النفوذ هو البطل الذي يتردد اسمه على السنة الناس في كل زمان ومكان. كان "توماس كارليل" صاحب كتاب "الأبطال" وعبادة البطولة يقدس البطل أما "فرنسيس بيكون" فيقول عن الحاكم المستبد الطموح أنه تمامًا.. كالقرد الذي لكي علا في تسلق الشجرة تفنن في ألاعيبه، إننا نتطلع إلى اليوم الذي تمتنع فيه ظهور الديكتاتوريين السفاكين وإلى أن تحين هذا الوقت لا بد أن تقنع بوضع العراقيل الشرعية والإدارية في طريق الطامعين حتى لا يكون من ورائهم أثر أو خطر.

* * *

أما الحروب، فإن الاستعداد لها والتهديد بإثارتها تسد كل طريق يؤدي إلى ترقية المجتمع هذه هي الحقيقة المرة التي يجب أن نعترف بها.. إن بعض علماء "البيولوجيا" ومن أبرزهم سير "أرثر كيث" يرون أن الحرب وسيلة الطبيعة في تطهير المجتمع وهي الوسيلة التي تكفل له بقاء الأصلح من الأفراد والأمم المتمدنة، ولكن هذا زعم باطل إذ أن الحرب تفتك بالشبان والأقوياء وتبقي على المرضى والضعفاء وليس هناك ما يحملنا على أن نعتقد أن الشعب الذي ألف وسائل العنف وأجاد فنون الحرب أرق من الشعوب الأخرى فليس أرقى الأمم أشدها جرأة على القتال ولم يبرهن التاريخ على أن أقدر الناس على الحرب هم أصلحهم للبقاء الحرب دائمًا تقضي على نخبة من الرجال

الممتازين الأقوياء، وهي بالنسبة للأمم والشعوب لا تسير على قاعدة ثابتة محددة فهي أحيانًا تضمن السيادة والبقاء للشعوب التي تجيد فن القتال وأحيانًا أخرى تنتهي بدمار هذه الشعوب وتبقى على الشعوب التي لا تتقن فنون الحرب.. أما الأسباب الاقتصادية التي تشعل نار الحروب فأولها "الرأسمالية".

ففي ظل هذا النظام تحتاج الدول الصناعية الكبرى إلى أسواق خارجية، لأن الإنتاج يزيد على حاجة السكان وعلى القوة الشرائية الداخلية ولقد كان منشأ الرغبة في التوسع الاستعماري عند الدول العظمى في القرن التاسع عشر الحصول على أسواق خارجية تبيع فيها منتجاتها الفائضة كما أن هناك سببًا آخر وهو هام للغاية وذلك هو اهتمام الأقليات القوية بمصالحها الخاصة وأقوى هذه الأقليات وأسوئها أثرًا "تجار الأسلحة" فمما لاشك فيه أن الحروب والاستعداد لها تدر عليهم ربحًا عظيمًا ولا مراء في أن مصلحة هذه الطائفة في إشعال نار الحرب ولذا تراهم لا يفتاون يثيرون الفتن ويخلقون أسباب الشقاق بين الحكومات وذلك بشتى الوسائل من الدعاية إلى الرشوة وهم يخمدون كل صوت ينادي بنزع السلاح ومن ثم فإن أعضاء حزب اليسار ينادون دائمًا بضرورة استيلاء الدولة على هذه الصناعة. ولكننا يجب ألا ننسى أن التسليح تسليح على أي حال سواء قامت به الحكومة أم الشركات فإن الطائرة التي تصنعها الحكومة تفتك بالناس مثلما تفتك الطائرة التي تخرج من مصنع تديره شركة رأسمالية بل إن صناعة الأسلحة في مصانع الدولة

يجعل هذه الصناعة يصبح مشروعة ويبررها إلى حد كبير وينجم عن ذلك أن إلغاء هذه الصناعة يصبح عسيرًا إذا ما تولت الحكومة إدارتها وما يزيد الطينة بلة أن الحكومات المركزية بعد ما تسيطر على صناعة الأسلحة لا تحب أن تتخلى عنها لأنها وسيلة فعالة للاستبداد ثم أن الدولة أقوى من كل صاحب نفوذ بمفرده كي أن المال المشتغلين بصناعة الأسلحة يمكن تحويلهم بسهولة إلى جيش مدرب تسيطر عليه الحكومة.. وأخيرًا يجب ألا نغفل عن المشاكل الدولية التي تترتب على تحويل هذه الصناعة إلى صناعة قومية إن الدولة التي تصنع الأسلحة قد تطمع في الربح كما يطمع الأفراد تمامًا في النظام الرأسمالي ولذا تراها تبحث عن الدول الضعيفة لكي تبيعها أسلحتها.. وهي لا تجني من وراء ذلك الربح فحسب بل إنها تستطيع أن تسيطر على سياسة الحكومة المشترية. وهذا من دواعي المنافسة بين الدول الكبرى التي تصنع أسلحتها! وهذا لون جديد من ألوان المنافسة وسبب آخر للنزاع الدولي ولاشتعال الحروب فاستيلاء الدولة على هذه الصناعة معناه استبدال شر بشر إننا لا نبغي نقل هذه الصناعة من أيدي الأفراد إلى أيدي الحكومات إنما نبغي محوها محوًا تامًا ولن يكون ذلك إلا إذا امتنعت الأغلبية بضرورة الإلغاء!

وقد قال بعض كبار المفكرين أن الحرب لا يمكن أن تتلاشى ويزول شبحها المخيف إلا إذا أدخلنا على النظام الاقتصادي تعديلًا شاملًا فهم يقترحون بدلًا من النظام "الرأسمالي" "النظام الاشتراكي" ولكن الاشتراكية لا تكفل لنا امتناع الحروب واستئصالها من جذورها فقد تؤدي الاشتراكية إلى

تقوية الأمة اقتصاديًا إلى حد يثير مخاوف الأمم الأخرى وينتهي بالنزول إلى ساحة القتال.. ولكن ليس معنى هذا أن إصلاح النظام الاقتصادي لا ضرورة له بل هو على النقيض من ذلك أمر من الأمور التي لا غنى عنها.. بل إنه يعاون على استتباب الأمن والسلام في العالم.. أن الخلاص الوحيد در المقاومة السلبية ويلاقي المبشرون بسياسة اللين مقاومة شديدة من الحكومات التي ينتمون إليها ولذلك فهم مطرون إلى العمل سرًا ولكن البوليس السري الحكومي المنظم يستطيع في كثير من الأحيان أن يطاردهم ووسيلتهم الوحيدة بعد ذلك هو المقاومة السلبية والعصيان المدني و عدم التعاون مع الحكومة ويدعوهم هذا إلى نشر المقاومة السلبية على نطاق واسع لأن العصيان المدني لا يصلح إلا إذا قام به مجموع الأمة أما الثورات فيمكن في الوقت الحاضر وبالوسائل الحديثة قمها في الحال فإن كان الثائرون مسلحين تسليحًا قويًا تغلب الأمر إلى حرب أهلية ولا يرجي من الحرب الأهلية أي خير.. ولذا فإن الخلاص الوحيد هو المقاومة السلبية فهي تستطيع إن هي نظمت أن تتغلب على أقوى الديكتاتوريات.

أما رأي الكاتب الكبير في المساواة، فهو يعترف بالاختلاف في القدرة والذكاء،ويقول أن واجب المجتمع أن يحدد للفرد العمل الذي يلائم مواهبه وأن يمنع الزعيم الموهوب من استغلال موهبته استغلالًا غير مشروع وقد بين دبريل في كتابه "لكل فرصته" إنه عندما تشتغل الجماعات الصغيرة بعمل معين يتحملون فيه التبعة متعاونين سينالون فيه جزاؤهم جماعة لا أفرادًا لا يكون اختيار الزعيم أو تعيين عمل معين لكل فرد من الأمور

المسيرة الشاقة أن لكل إنسان بطبيعته حكم نافذ البصيرة يستطيع أن يحكم على المقدرة المهنية والخلقية لزملائه في العمل ولذا ففي الحياة العملية يمكن للأفراد المتعاونين دائما أن ينتخبوا لزعامتهم خيارهم دون أن يستغل الزعيم نفوذه في غير مصلحة الآخرين وهذا لا يمكن أن يتم في ظل النظام الدكتاتوري المطلق (ويلاحظ أن الهيئات الصناعية دكتاتورية في البلاد الديمقراطية) وذلك لأن الزعيم الدكتاتوري مشبع بروح الانتقام من دونه كي يعرض الإساءة التي لحقت به في حياته المبكرة فان الجماعات الإنسانية تشبه جماعة الدجاج في نظامها تقر الدجاجة (أ) الدجاجة (ب) فتنقر (ب) الدجاجة (د) وتنفر (د) الدجاجة (د) وهلم جرا وكذلك الحال في المجتمعات الإنسانية لأن الرئيس المستبد إنما يفعل ذلك لأن غيره استبد به من قبل إن كبار الديكتاتوريين يولدون صغارهم كما تولد العقارب والحية الحية غير أن الجماعة المتعارية التي تتمتع بالحكم الذاتي محصنة من ربا۔ الاستبداد !

# تطور الأمم

إنه أيضًا كتاب قديم ومؤلفه هو الكاتب الفرنسي الشهير "غوستاف لوبون" ولابد لنا أن نجول جولة صغيرة مع هذا العالم الفذ لما في كتابة القيم من موضوعات متجدده وحقائق حية جديرة بكل فرد أن يدرسها ويعرفها، وقد كان لهذا الكتاب خطورة عظيمة بين أقطاب السياسة حتى أن رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق تيودور روزفلت كان يصحبه في ترحاله مستلهمًا إياه في سياسته -كما صرح هو بذلك- والكتاب يشمل عدة أبواب منها مبدأ المساواة وكيف أن الحضارة تقضي عليه أثر المبادئ، وكيف تسود وتنتشر!؟ شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم! إلى آخر هذه الأبواب الهامة.. وقد دلل المؤلف بل وأثبت أن الحضارة كما تقدمت في أي أمة من الأمم لا بد وأن تحمل في طياتها بذور التفاوت الذهني بين الأفراد.. فهو يقول إن أهم نتائج الحضارة من جهة هو تفاوت العروق بعمل ذهني تفرضه الحضارة على الشعوب التي بلغت درجة رفيعة من الثقافة فيعظم كل يوم وهو من جهة أخرى إحداث تفاوت تدريجي في مختلف الطبقات التي يتألف منها شعب متمدن.

إن شروط التطور الصناعي الحديث تقضي على الطبقات الدنيا في الأمم المتمدنة بالعمل الضيق الذي يحط من ذكائها بدلاً من تنميته فمنذ مائة سنة كان العامل صانعًا حقيقيًا قادرًا على صنع آلة الساعة مثلًا واليوم غدا صانعًا بسيطًا لا يصنع غير قطعة واحدة فيقضي حياته في ثقب

الثقوب المتماثلة أو صقل الأداة ذاتها أو سوق الآلة وهذا ما يوجب هزال ذكائه بسرعة وعكس ذلك أمر "المستصنع" أو "المهندس" الذي تضغطه الاكتشافات والمنافسة المتحفزة إلى جمع عدد من المعلومات وروح المبادرة والاختراع يزيد عما كان يجمعه منذ قرن بدرجات وإذا كان دماغه يعمل على هذا الوجه فإنه يخضع للسنة المسيطرة على جميع الأعضاء أي إنه ينمو مقدرًا فمقدار.

ولقد أشار "توكفيل" إلى ذلك التفاوت التدريجي بين الطبقات الاجتماعية في زمن كانت فيه الصناعة بعيدة عن التقدم الذي وصلنا إليه الآن فقال! كلما أوغل في تطبيق مبدأ توزيع الأعمال غدا العامل أشد ضعفًا وأضيق عقلًا. واليوم يمكن عد الأمة من الناحية الذهنية كهرم مدرج يتألف من أعرض أقسامه طبقات الشعب الدنيا ويتألف من درجاته العليا طبقات الشعب الذكية وتألف ذروته من صفوة قليلة من العلماء والمخترعين والكتاب وهذه المرة الأخيرة وإن كانت صغيرة إذا ما قيست ببقية الشعب هي ما يقوم عليه وحدة مستوى البلد في سن الحضارة الذهني وتكفي إزالتها لزوال كل ما فيه من مجد الأمة.. وقد صدق "سان سيمرن" حيثما قال.. إذا ما أضاعت فرنسا بغتة الخمسين الأول من كل علمائها وفنانيها غدت جسمها بلا روح وجثة بلا رأس وهي إذا ما أضاعت جميع موظفيها لم يصبها من وراء ذلك غير ضرر يسير! نستخلص من ذلك إنه كلما تقدمت الحضارة كلما زاد التفاوت الذهني بين أقصى طبقات الشعب بيد أن هناك أسبابًا كثيرة تحول دون تمام ذلك التفاوت

الذهني بين الطبقات الاجتماعية وأول تلك الأسباب أن التفاوت لا يكون إلا في الذكاء وهو.. لا يتناول الخلق أو يتناوله قليلًا ونحن نعلم أن الخلق لا الذكاء. هو الذي يمثل دورًا خطيرًا في حياة الشعوب! والسبب الثاني هو أن الجموع تهدف إلى أن تصير صاحبة السلطان في الوقت الحاضر وإذا كانت الجموع بادية الحقد على الأفضليات الذهنية فإن كل أرستقراطية ذهنية تقضي عليها كما أن الاشتراكية إذا ما قيض لها أن تقهر بلدًا كان بقاؤها بعض الزمن موقوفًا على إزالة جميع الأفراد الذين يحوزون أفضلية فيجاروزون المستوى المتوسط ولو قليلًا. ويعود غوستاف لوبون فيقول إن الأمم يمكن أن تستغني عن صفوتها الذهنية، على التحقيق ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن مستواها الخلق لأن روما سقطت حينما ابتعدت عن دائرة الأخلاق.. ولكننا نرد على لوبون قائلين إننا في هذا العصر الحديث لا نستطيع أن نستغني عن الاثنين معًا الذكاء والأخلاق!

إني أتساءل ما فائدة استعداد التضحية وعدم الانهماك في اللذات الفردية وهذه المثل الأخلاقية العليا التي يعتنقها الفرد إن لم يكن هناك ذكاء بلد السلاح أو يلد الإمكانيات التي نحملها في أيدينا ونشرها في وجه العدو المسلح.. قد أحمل المثل الأخلاقية وأحمل إرادة التضحية ولكن لابد من الصورة الذهنية الصفوة العلمية التي تضع أمامي الإمكانيات المادية التي أستطيع أن أدافع بها عن وطني ونفسي.. والصورة الذهنية قد تكون موجودة وتخرج السلاح الذي هو إحدى نتاجها ولكن هذا السلاح لا يجدي أيضًا إن فترت إرادة التضحية وأصبحت نزعة اللذة الفردية تسيطر

علينا، إننا في هذا العصر الحديث في حاجة إلى الذكاء والخلق معًا كلاهما يعمل جنبًا إلى جنب في سبيل رد المغتصب. وحينما يستطرد المؤلف الكبير ويتحدث عن الأخلاق يقول بفضل الخلق وضع ستون ألف إنجليزي تحت نيرهم ٢٠٠ مليون هندوسي، فأي أخلاق حكم بها المستعمر أي مستعمر شعبًا من الشعوب!

أليس عدم الذكاء أو تلاشي المعرفة العلمية الصحيحة هو الذي أدى إلى استعباد الشعوب وإذلالها؟! أفلو كانت هذه المجتمعات قائمة على النهج العلمي الصحيح أكان قدر للاستعمار أن يجعلها تحت نيره؟! لقد تحدث "استأذنا الكاتب الباحث أحمد بهاء الدين" عن الفيلسوف الألماني أشبنجلر فقال في مقال صغير رائع "عنوانه خيانة لمن" قال فيه.. إن أشبنجلر يرى في انتشار العلم خيانة لأروبا ولا يرى أن احتكار أوروبا للعلم خيانة للحضارة الإنسانية التي أخذت أوروبا منها يومًا من الأيام أسرارها إن أوروبا ترتكب خيانة خطيرة في حق نفسها إن أسرار الصناعة التي هي علة تفوقها تتسرب إلى الشعوب الأخرى المتأخرة. إن أوروبا يجب أن تحتكر العلم والثقافة العلمية لنفسها... وهكذا نرى أن علة الهيمنة – كما يقول الكاتب الكبير –لا ترجع إلى الخلق، وإنما ترجع إلى الذكاء إلى العلم والعلم وحده.. أما الباب الذي قرأته طويلًا فهو باب "شان" "الأفكار في حياة الأمم" وفي هذا الباب أروع تفسير قرأته حتى الآن لانتشار المبادئ فهو يقول.. ويتم انتشار جميع المبادئ. على نمط واحد سواء كان المبدأ دينيًا أم سياسيًا والمبدأ يجب اعتناقه في بلده الأمر من قبل

عدد قليل من الرسل الذين ينالون نفوذًا كبيرًا بشدة إيمانهم أو منزلتهم والرسل إذ ذاك يؤثرون بالتلقين أكثر مما بالبرهان.

ولا يجب أن يبحث في قيمة البرهان من عناصر الإقناع الجوهرية والمتكلم يفرض أفكاره بنفوذه الشخصي والمتكلم لا يمارس أي نفوذ لمخاطبة العقل وحده والجماعات لا تقنع بالأدلة أبدًا بل بضروب التوكيد ويتوقف سلطان هذا التوكيد على نفوذ الشخص الذي يصدر عنه.. وإذا ما وفق الرسل لإقناع عدد قليل من الأشياع فكثر عددهم بذلك أخذ المبدأ بدخل منطقة الجدل فيثير المبدأ في بدء الأمر اعتراضًا عامًا لما بصدمه من أمور كثيرة مقررة حكم الضرورة ومن الطبيعي أن يثير هذا الاعتراض من يدافع عن المبدأ من الرسل مثلًا بسفر عن غير اقتناع هؤلاء الرسول بأفضليتهم على بقية الناس فيناضلون عن المبدأ الجديد بحماسة لا لأن هذا المبدأ صواب وهم في الغالب لا يعرفون عنه شيئًا بل لأنهم اعتنقوه فقط وهنالك يغدو المبدأ الجديد موضع مناظرة شديدة، أي أنه ينتحل بالحقيقة جملة واحدة من فريق ورفض جملة واحدة من قبل فريق آخر وكلا الفريقين يتبادلان النفي والتوكيد وهم قلما يتبادلان البرهان وذلك لأن أسباب قبول المبدأ أو رفضه ترجع لدى معظم الناس إلى المشاعر والمشاعر لا يؤثر فيها المعقول أبدًا..

ثم ينشر المبدأ بعد ذلك عن طريق التقليد والتقليد ملكة شائعة يتصف بها الناس كما يتصف بها القردة الكبيرة التي يذهب العلم الحديث إلى أنها أجداد الناس..

والمبدأ إذا ما تناوله عامل العدوى وصل الدور المؤدي إلى النجاح بحكم الضرورة ولسرعان ما يقبله الرأي العام وهنالك يكتسب قوة نفاذة دقيقة ينتشر بها في جميع الأدمغة بالتدريج محدث جوًا خاصًا وإن شئت يقل نمطًا عامًا للتفكير وهو ينساب في جميع مدارك أحد الأدوار وجميع إنتاجاته كالغبار الدقيق الذي ينفذ من الطرق في كل مكان وهنالك يكون المبدأ ونتائجه جزءً من الموروثات الكثيفة العادية التي تفرضها التربية علينا وبذلك يتم النصر للمبدأ ويدخل في منطقة المشاعر فيكون في مأمن كل اعتداء زمنًا طويلًا.. ومن مختلف المبادئ التي تسير الحضارات ما هو خاص بالفنون والفلسفة فيظل ملازمًا لطبقات الشعب العليا ومن تلك المبادئ ما هو خاص بالأفكار الدينية والسياسية على الخصوص فيهبط إلى أعماق الجماعات وهو يصل هنالك مشوهًا إلى الغاية غير أن ما يمارسه إذ ذاك من سلطان على النفوس، الساذجة العاجزة عن المناظرة عظيم..

والمبدأ يمثل أدوارًا لا تقاوم وتنتشر نتائجه بقوة السيل الذي لا السبيل إلى رده بسد، ومن السهل أن تجد في الأمة على الدوام مائة ألف رجل مستعدين للتضحية بأنفسهم دفاعًا عن مبدأ إذا ما تمكن منهم وتظهر عندئذ الحوادث التي تقلب التاريخ والتي لا يقدر على إنقاذها غير الجماعات ولم تقم بالمثقفين والفلاسفة تلك الديانات التي سادت العالم وله تلك الإمبراطوريات الواسعة التي امتدت إلى أقصى الدنيا إلى أقصاها ولا تلك الثورات الدينية والسياسية التي قلبت أوروبا بل قامتا بأميين استحوذ عليهم المبدأ فاستعدوا للتضحية في سبيل نشره!

ثم ننتقل مع المؤلف الكبير إلى باب آخر، وهو "شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم" فهو يقول في هذا الباب إن الحضارة مدينة لصفوة قليلة من الممتازين،ولا يظهر ذو العبقرية اتفاقًا ولا بمعجزة بل يمثلون تاج ماض طويل وهم خلاصة عظمة عصره وعرقهم وكل مساعدة على تفتحهم وارتقائهم تعني مساعدة على التقدم الذي ينتفع به جميع البشر وإذا ما تركنا أحلام المساواة تعمي بصائرنا كنا أول ضحايا المساواة.. والمساواة.. والمساواة حلم ذوى المدارك الهزيلة المساواة لا تتكون إلا في الانحطاط والمساواة لم تتحقق في غير عصور الهمجية فقط.. واكتشافات المخترعين والعباقرة نتيجة سلسلة طويلة من الاكتشافات السابقة فالطباعة والبارود والكهرباء وكل هذه الاختراعات ليست وليدة دماغ واحد فنحن حين ندرس تكوين مثل هذه الاكتشافات نبصر أنها نشأت دومًا عن سلسلة طويلة من الجهود التحضيرية.. والحق أن الاختراع النهائي ليس إلا تتويجًا لما تقدمه، ومن ذلك ملاحظه جالمكيو لتساوي المدة في تموجات المصباح المعلق مهد السبيل لاختراع مقياس الزمن (كروتومتر) الذي أسفر لدى الملاح عن إمكان اهتدائه إلى طريقه في بحر المحيط ومن ذلك أن نشأ بارود المدفع عن تحول النار اليونانية بالتدريج ومن ذلك أن الآلة البخارية تمثل مجموعة اكتشافات تطلب كل واحد منها أعمالًا عظيمة وما كان ليوناني متصف بالعبقرية تفوق عبقرية ارخميوس مائة مرة أن يكتشف القاطرة لما لا يكون لديه ما يساعده على تمثلها وهو لكي ينتهي إلى صنعها لا بد أن ينتظر تحقيق الميكانيكا المبتكرات تقتضي جهود ألف سنة.. وهؤلاء المخترعون إن كانوا يمثلون دورًا هامًا في تطور الحضارة المقبل فإنهم لا

يمثلون أي دور مباشر في تاريخ الأمة السياسي ولم يكن لدى المخترعين من أعاظم الرجال الذين تم بفضلهم الاكتشافات المهمة المتر جمة بين المحراث والبرق والمؤلف منها تراث البشرية العام من الصفات الخلقية ما يقيمون به ديانة أو يدوخون به دولة أخرى فإن ذلك من عمل السياسة من عمل المتعصبين وحدهم.. وهم من ذوى الذكاء المحدود ولكن مع أخلاق فعالة وشهوات قوية.. والحق أن عباقرة المخترعين يسجلون سير الحضارة وأن المتعصبين المتهوسين يخلقون التاريخ!

# روح السياسة

هو كتاب قديم قيم ولكن أفكاره متجددة دائمًا،وستظل موضع البحث والمناقشة مهما مرت الأيام واسم الكتاب "روح السياسة" لمؤلفه الكاتب الفرنسي الشهير" غوستاف لوبون" هذا الكاتب الذي طاف كثيرًا من البلاد ودرس نفسية الجماعات وتطور الأمم وعوامل انحدارها وذبولها والأسس التي تبعث فيها الحضارة والارتقاء، وقد ترجمت أغلب مجلداته الرائعة إلى العربية وقام بالترجمة الأديب الفلسطيني الكبير "محمد عادل زعيتر" وهذا الكتاب الذي أقدمه الآن للقراء زاخر بالآراء القيمة.. وأول باب استوقفني فيه هو باب والعوامل النفسية في المعارك الحربية.. وفي هذا الباب يدلى المؤلف الكبير برأيه عن الحروب التي ما زالت الآراء تتضارب حولها وتختلف وينتهي المؤلف إلى الوقوف بجانبها وتأييدها فهو يقول.. لا جرم أن الحروب لا تخلو من مساوئ ولكن إذا وضعنا مساوئها في كفة الميزان ووضعنا فوائدها الجمة في كفة أخرى فأيتهما ترجح؟! مساوئ الحرب:

(١)فقد الرجال. (٢) ضياع المال.

أما ضياع المال فأهميته طفيفة فإن دول أوروبا تنفق قسطًا عظيمًا من ماليتها على جيوشها وليس الملك لتلك النفقات نتيجة غير تحريك نشاط الشعوب وتعودها التقشف ووقايتها من غزو الأجنبي وتعديه.. وهل في أوروبا دولة واحدة تقدر على البقاء بدون جيش فلو تحلت دولة أوربية من

جيشها لاتفق بعض الأمم على اقتسامها ولأرهقت بضرائب أثقل من الضرائب التي يتطلبها تلحها.. أما فقد الرجال فالعبرة بنتائجه البعيدة، فقد أدت حروب نابليون إلى هلاك ثلاثة ملايين من الرجال ولما نشأ عنها استيلاء فرنسا على مقادير الشعوب عشرين عامًا أورثتها أسطورة فخر.. وكل ما نراه في الحروب من نتائج سيئة هو قضاءها على أقوى رجال الأمة وتقليل عدد سكانها على أن نتائج مثل هذه لا تكون شديدة الخطر إلا على الشعوب التي يكون عدد سكانها في دور التوقف.. إن من المنافع التي تمن بها الحروب هو منحها الشعوب "نزعة قرمية" فبالحروب تتكون تلك النزعة وتستقر ومن المعلوم أن لا حياة للشعوب بدونها.

ولنطرح ما للحروب من مؤثرات غير مباشرة في الشعوب فهنالك مؤثرات مباشرة لا يسع المرء إنكارها فلقد نشأ عن الحروب الأخيرة انتشار مبدأ "التسلح العام" في أوروبا وماذا كانت نتيجة هذا المبدأ يقول الحصون إنه أوجب تدهورًا في مالية الدول فيرد عليهم علماء النفس قائلين إنه أورث الشعوب سموًا في أخلاقها، فلولا نظام التجنيد الإلزامي لعمت الفوضى والاشتراكية وكل عامل من عوامل انحلال الحضارة ويعملنا ذلك النظام شيئًا من الصبر والثبات وملأ نفوسنا مثلًا أعلى وهو مؤقتًا كما يعلمها أيضًا حب التضحية ويقاتل وحده خلق الأثرة..

إن العلم وحده لا يكفي لرفع مستوى الرجل الأدبي رفعًا يدفعه إلى التضحية في سبيل المبدأ أو الوطن.. إن وجود الروح المسكرية أمر حتمي لكل أمة لا تريد أن تغيب عن التاريخ.. إلى هنا تنتمي حجج المؤلف

وآراؤه وهي آراء لابد أن تقف عندها قليلًا ونتأملها ونناقشها.. إن المؤلف يقول إن الحروب تمنحنا النزعة القومية! فبالحروب وحدها تولد هذه النزعة وتتغلغل في أعماق النفس البشرية.. ونسي المؤلف أو تناسي نزعة أخرى لابد وأن تنمو وتنتعش مع كثرة الحروب.. إن الحروب كفيلة بأن تبدل أخلاق أمة وتلونها بنزعة الوحشية، ولقد حارب الرومان طويلًا فإذا كانت النتيجة؟! تبدلت أخلاقهم وتلونت بترعة الإجرام وأصبح القتل بينهم أمر شائعًا بلا رحمة أو وازع من ضمير أو خلق.. والحروب وإن كانت في أول الأمر تؤدي إلى ضياع المال إلا أنها تنتهي في النهاية إلى تركيز المال في يد حفنة من الرأسماليين، أليست الحروب وليدة الرأسمالية في كل مكان؟ ألم تجد الحروب رواجها والدعوة إليها إلا من جانب هذه الحفنة من الرجال! حنيت يسعى الشراء إليهم في مجتمعاتهم بينها المواطن العادي لا تسود عليه هذه الحروب بأي أثر.. سوى الفقر في أخلاقه.

لقد حدثنا المفكر الإنجليزي الكبير "هـ. ج. ولز" في مجلداته القيمة "معالم تاريخ الإنسانية" قائلًا إننا لو تعقبنا الحركات التسلطية التي ترعرعت في أوروبا قبل قيام الحرب الكبرى الأولى لوجدنا أن هذه الدعوات التسلطية الداعية إلى الفتح والاستغلال والسيطرة كانت تؤيد من جانب الرأسماليين وتحارب من جانب الطبقات الفقيرة كالمال والموظفين العاديين من جمهرة الناس.. إن هذه الدعوات التسلطية كان يؤيدها كبار رجال المال والأعمال.. أما الطبقات الأخرى لم تجرفها هذه الدعوات. فوقفت تناضل ضد الداعين إلى الحروب وتكون حزب في ألمانيا وهو حزب

الديمقراطية الاشتراكية الذي كان قائمًا على حسن تبصر الرجل العادي يهاجم مغامرات الرأسماليين في بلاد المستعمرات مهاجمة متواصلة لا انقطاع لها ولم يحدث هذا في ألمانيا فحسب وإنما حدث في فرنسا وإنجلترا اللتان سانتا فيهما الدعوات التسلطية التي كان مصدرها الرأسماليون.

أما قول المؤلف في أن نظام التجنيد لابد منه وأن الروح العسكرية حتمية لكي لا تغيب عن التاريخ فهو قول لا ينكر على الإطلاق فإن الروح العسكرية يجب أن تسود ولكن ليس معنى وجودها هو أن توجد إلى الحروب فإن الحروب لا يمكن أن تفلسف لصالح الإنسان فترتفع به وتنهض بأخلاق، حيث يلمع السلاح مخبو ضياء العقل وهي لا تورث القلائل ثراء حسب لكنها تورث الإنسان العادي.. المواطن الفرد فقرأ في أروع صفاته وأنبلها فنرتد به إلى أغوار سحيقة حيث لا رحمه ولا حب ولا إخاء.

أما الباب الآخر فهو باب "الأوهام الاشتراكية" والمؤلف في هذا الباب يؤمن بالتفاوت الطبيعي في العقل والإرادة مما فهو يشرح مبدأه ويهاجم الاشتراكية التي تدعو إلى المساواة المطلقة هجومًا عنيفًا.. فهو يقول: إن من مقاعد الاشتراكية القضاء على التفاوت الطبيعي بين الناس.. وترجوا الاشتراكية أن تصل إلى إلغاء الملكية وثروة الأفراد وإدارة الصناعات من قبل الحكومة ويتابع قوله أن مثل هذه الاشتراكية هي الاشتراكية الحاقدة على أفضلية الذكاء والنبوغ ولو تم لها النصر وبوشرت التسوية بين الناس فإذا تكون النتيجة؟!

النتيجة أن أصحاب الذكاء من أرباب فن ومخترعين ورجال مهرة سوف يهاجرون إلى بلاد أخرى إذ أن النبوغ لا بد أن يجزل لصاحبه الآخر الكثير في كل زمان ومكان.. وهكذا لا تظل الاشتراكية سائدة إلا في مجتمع مؤلف من أشخاص كثيري الانحطاط لأن التسوية عامل من عوامل الخراب ومن الأوهام الشائعة أن الناس متساوون في عقولهم ولهذا الوهم يعتبر العيال مكاسب رؤساء المصانع غير معقولة وإننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن موجدي الثروة هم أرباب الصناعة والمهندسون والعباقرة والعلماء وما كان للعقل شأن في المخترعات الكبيرة التي غيرت وجه الدنيا ثم ينتهي إلى قوله هذا بما أن الطبيعة أبت خلق البشر خلقًا متساويًا وأن الكفاءة أساس كل شيء أو أن الموجودين لعظمة الأمة هم أصحاب العقول الراجحة العميقة فالتسوية وهم وخمود..

ويقيني أن الكاتب أصاب فيما يقول ورأيه هنا في مبدأ التساوي يقارب رأي كاتب مصري معاصر هو أستاذنا عباس محمود العقاد فقد ألف كتابًا قيما من عدة سنوات اسمه " الفلسفة القرآنية" وقال فيه في باب "الطبقات" إن "القرآن الكريم" أقر "التفاوت" (هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون) وهذا التفاوت الذي دعا إليه الكتاب لا يرجع إلى عصبية في الجنس أو الأسرة إذ لا فرق في ذلك بين إنسان وإنسان إنما المؤمنون إخوة وحكمة التفاوت ظاهرة وآفة التشابه والتساوي أظهر لأن الحياة تفتقر إلى المزايا إذا قصرت حركتها على تكرير صورة واحدة في كل فرد من الأفراد وجعلهم نسخة واحدة

الأفضل لمجموعة على مجموعة، ولكنها تزخر بالمزايا المتجددة وتستزيد من الملكات المتعددة الكثيرة كلما طرأ بينها التفاوت في الأنصبة أولًا معنى للتفاوت إذا تساوى العاجز والكسلان وأصبح الكسلان يكسل ولا يخاف على وجوده والعامل بعمل ولا يطمح في رجحان.. واطمأن المجردون من المزايا كاطمئنان الممتازين عليهم بأشرف المزايا وأعلاها، فإن القدرة تكاليفها ثقيلة وأعبائها جسيمة والناس خلقاء أن يهيبوها وينكصوا عنها إن لم يكن لهم وازع من الخوف، أو دافع من الطموح، وإن العاجرين الكسالى ليطيب بهم العجز إن لم يكن فيه ما يخافونه ويحذرونه.. فالتفاوت موجود! أو التفاوت لازم!

ويأتي أيضًا "هـ. ج ولز" وهو مفكر فذ اشتراكي المبدأ ليعطينا رأيه في فكرة المساواة.. في الأجر بين أفراد المجتمع فيقول لقد شاع هذا الرأي بين الناس شيوعًا عظيمًا، ولكن لم يثر حوله إلا القليل من النقاش أو لم يثر حوله نقاش على الإطلاق وهو رأي لازم المذهب الاشتراكي إبان القرن التاسع عشر.. وهذا الرأي هو الأمل الذي لم يتحقق فهو قضية خلقية وليس غاية بيولوجية أو اقتصادية.

إن فكرة المساواة في الأجر معناها المساواة بين الأفراد في توجيههم لمناشط العالم الإنتاجية.

إن الاشتراكية المتطرفة في الإخاء تضع زمام الإدارة العملية في يد هيئة تتركز فيها السلطة، وذلك بسبب الاختراع الحديث والإنتاج الكبير الذي يتطلب الإدارة الحاذقة، وهذه الإدارة تبسط سلطانها بسطًا يدعو إلى

الريب من بعض الوجوه ثم تزعم أنها تعمل الخير العام، وبذلك تخرس السنة القوم كلها وتقيد نوازع الابتكار الحرة..

إذًا فتنفيذ فكرة المساواة في الأجر بين الجميع لا يتم إلا على يد حكومة طاغية ديكتاتورية تعطى المواطنين ما تراه صالحًا لهم، على أن تسوي بينهم في عطائها على وجه التقريب، وقد يكون ما يجره هذا التساوي، من فقد التنوع والحرية وزوال الابتكار على الأخص ثمنًا غاليًا جدًا، بل هو أغلى من أن يشترى به زوال الأثرياء بترف وتبذيرهم في مجرى الحياة الاجتماعية.

لقد خطب الرفيق "ستالين" في مؤتمر رجال الاقتصاد في موسكو في ٢٣ يونية سنة ١٩٣١ وأعلن مرحلة جديدة في تجربة روسيا الكبرى.. فقال بالحرف الواحد:

"إن واجب الاقتصاديين أن يتحققوا أن تسخير المال ليس كل شيء، فلا بد أن يرتبط المال بالمشروعات التي تعاقدوا معها كما يجب أن نواجه مجري العمل بنظام من الأجور المتفاوتة كي تزيد من قدرة الإنتاج، مع أنه لم يكد هنالك حتى ذلك الحين اختلاف بين ما يكسبه مهرة العمال وغير الماهرين، وعلى ذلك لم يجد العاجزون ما يحفزهم إلى تحسين مواهبهم.. ولم يعد هذا الشر محتملًا يومئذ فتطلبت الدولة السوفيتية من العمال الجد في العمل والنظام والتنافس، ولم يعد في حدود المستطاع أن ينفذ نظام الأجور القائم على احتياج العامل بل تحتم أن يؤجر العامل تبعًا لما يؤديه من العمل جودة ومقدرًا، حيث تراعى في ذلك الدقة لأنه من الزم الواجبات.

خلق طراز جديد من المهارة الفنية المنتجة.. أما الباب الذي وقفت عنده طويلًا فهو باب "القتل السياسي" وفيه أروع تفسير لأسباب القتل السياسي وبواعثه..

فالمؤلف يقول: أن القتل السياسي قد كثر وقوعه في هذه الأيام مظهر من مظاهر الفوضى الاجتماعية وعنوان لاختلال نفسي عظيم وأكبر انطباع يوجبه القتال السياسي في الجمهور عدم تأديته إلى أبي نتيجة عملية على الإطلاق فسواء أقيصر روسيا كان المقتول أم ملك إيطاليا أم إمبراطور النمسا أم ملك البرتغال يدل الواقع على أن يتسبب في الحال مكانه الى آخر من دون أن يبدل في النظام الذي يمثله المقتول. وكثيرًا ما يؤدي القتل السياسي إلى رد فعل مزيد للنظام المذكور..

ويلوح لنا أن مثل هذه الحقائق، توجب بلبلة في مباحث علم النفس المزاول القائلة: إن مصدر الجنايات، هو المنفعة الشخصية كالانتقام والطمع.. الخ..

والجرائم السياسية تنشأ إذًا عن عوامل بعيدة عن المنفعة الشخصية فكيف يستطيع "علم النفس" الحالي تفسير هذه الجرائم؟!

يقتضي الوصول إلى ذلك إلى أن نبحث في انتشار بعض المعتقدات وسلطانها على النفوس ضرورة الخضوع لمعتقد دينيًا كان أم سياسيًا أم اجتماعيًا غريزة متجبرة على كثير من النفوس البشرية فهو لا يحتاجون إلى معتقد يدير حياتهم آليًا ويكفيهم عنا التفكير ومعنى ذلك أنهم يصبون إلى الاستعداد الفكري لا إلى حرية الفكر ولا تأثير للعقل، فلو نظرت إلى

الحقيقة لما رأيت، معتقدًا من المعتقدات الكبيرة التي دان لها البشر وقامت عليها أعظم الديانات، وأمتن الدول نشأ عن العقل فالمعتقدات من عمل عدد قليل من المنهوسين وهي لم تنتشر إلا بفضل اتباعها المشبعين من إيمان قوي لتحويل الأباطيل الظاهرة إلى حقائق ناعمة.. ولاستبعاد النفوس..

مدة الإيمان في هؤلاء الأتباع تجعلهم يسيرون جنبًا إلى جنب غير مبالين بمنفعتهم الشخصية ولما كان الإيمان حقيقيا فلا يتأخرون عن القضية بكل شيء في سبيل نصره، فلذا مثلوا دورًا عظيمًا على مسرح التاريخ..

هم كما بينت في كتابي "روح الاشتراكية" أناس متصفون بغريزة دينية نامية يحتاجون إلى الإذعان لوجود أو أي شعار ديني يضحون في سبيله بكل ما لدهم وكل فريق منهم يعال نفسه

مجتمع فردوس قريب في جنات الآخرة التي كان يحلم بها أجدادنا.. والرسول شديد الخطر بعجزه عن التعقل، واحتياجه الى نشر معتقده وجله حقائق الأمور، وتأثيره في جماعات عاجزة عن التعقل، ذات آراء لا تنالها إلا بفعل العدوى، ومن الأباطيل السائدة للجيل الحاضر.

إن الجماعات تؤخذ بالعقل والمنطق مع أنها لا تستمد إيمانها إلا من التوكيد والتكرار والنفوذ.

والعدوى كما بينت غير مرة ولا تبالى الجماعات بمناقضة إيمانها لأوضح منافعها. فالناس عند ما يؤمنون بالمعتقدات فيتخذونها دليلًا لسير هم وحركتهم، وكثيرًا ما قلب العالم بفعل أشد المعتقدات مخالفة للعقل

والصواب وسيكون شأن المعتقدات في المستقبل مثله في الماضي..

وبمثل هذه الحقائق نفسر القتل السياسي: والقتل السياسي إن كان بغيضة لا يدهشنا فأكثر ما يقصده الرسول المؤمن أن يجعل الناس يشاطرونه معتقده، وأن يقضى على كل ما يحول دون ذلك مهما يكافه الأمر وهو يشعر باحتياج شديد إلى نشر إيمانه وأن يذيع في العالم ذلك الخبر الطيب الذي سيخرج البشر من الظلمات.. الحاجة الى التخريب.

من مقومات مزاج الرسول النفسي وهل ظهرت رسالة بغير قتل النفوس، وهدم بعض الأشياء لكي يقضي على أعداء إيمانه لا يتأخر عن قتل ألوف الأبرياء، وقذف كثير من القنابل في أحد الشوارع المأهولة.

وما أهمية هذه الملاحم ما دام الرسول يسعى لتجديد البشر وتوليد دعائم الحقائق وهدم الأباطيل.. وتزيد المبادئ الفوضوية عدد ضحايا القتل السياسي فكل يعلم قتل صاحب وزير الهند، من قبل طالب هندي مشبع من مبادئ إحدى الجرائد التي جاء فيها ما يأتي: إن القتل السياسي ليس جناية وإن كان ذلك يحرمنا عطف أصدقاءنا واحترامهم لجميع الأشخاص يعمدون القاتل السياسي غير مجرم بل منتقم للإنسانية..

ولقد أصبح عدد جنايات القتل التي اقترفها الفوضويون والقوميون وغيرهم من الرسل في الثلاثين سنة الأخيرة كثيرة جدة ولا شيء يدل على أنه سيقل بل الدلائل تجعلنا أنه سيزيد فقد حول المنهوسون الذين استولت عليهم الأديان في الماضي وجههم إلى عالم السياسة في الوقت الحاضر ومن العبث مناقشتهم فأما أن يقضوا علينا أو نقضي عليهم!

# مع المجانين

إذا أردت أن تمتحن قداسة الإنسان فاجعله يعيش بين أكداس الذهب! إنك تصفق لحامل السلاح لأن نفسك تتوق أن تحمل مثله سلاحًا وتسفك مثل ما سفك دماءً وأرواحًا!

**[المجنون]**

هل تؤمن بقانون "كارما؟!" أو بمعنى آخر مبدأ تناسخ "الأرواح" الذي بشر به بوذا، ولا يزال أنصار هذا الفيلسوف في الهند يؤمنون به إيمانًا لا حد له! إنه مبدأ عجيب فروحك تحل في أجساد بعد أجساد، لكي تنال جزاءها أو عقابها جزاء ما اقترفت في حياتها الماضية.

.. لقد قرأت عن هذا المبدأ كثيرة فلم يسيطر على غير أن الصور الغريبة التي تمر على حياة الإنسان والتي تلعب دورًا خطيرًا في محيط وجوده قد جعلتني أبدأ الشك في هذا المبدأ أو أبدأ التفكير فيه مرة بعد أخرى ثم ينتهي التفكير إلى الإيمان.. ففي المنطقة التي أقطن فيها أرى رجلًا قد جاوز الخمسين من عمره.. هذا الرجل بلا عمل وأيضًا بلا وعي في نظر كل من حدق.. فيه وتأمله ولم يتجاوب معه الحديث.. يبرح هذا الإنسان الحجرة التي يقطن فيها الساعة التاسعة صباحًا ويظل سائرًا هائمًا على وجه الأرض حتى الساعة العاشرة مساءً وسوف أعطيك صورة لهذا الإنسان.. فهو يسير في خطوات وئيدة ويبدو دائمًا في صورة المحتقر المزدرى لكل من يراه

فهو معتد بنفسه فخور إلى حد بعيد، وكلما سار خطوة إلى الأمام بصق على الأرض وأشار على البصقة ثم ابتسم ثم عاد مرة وأشار إلى السماء في غضب وثورة.. أما ملامحه فلست أغالي حينما أقول إنه صورة طبق الأصل من ملامح الفيلسوف الألماني "فردريك نيتشه" فنظرته الحادة العميقة هي نظرة نيتشه وهوة الجنون التي تردى فيها نيتشه قبل أن يفارق الحياة هي نفس الهوة التي تردى فيها هذا الرجل العجيب ولقد حدثته يومًا عن حياة نيتشه وعن جزء قليل من آرائه التي بسطها في كتابه..

"هكذا تكلم زرادشت، فوجدت أن الرجل ملما بهذا الفيلسوف العبقري وبدأت صراحة أفكر في أن روح الفيلسوف قد حلت في هذا الرجل لكي تنال العقاب.. ولم لا؟! أليس نيتشه هو الذي أعلن موت الله أليس نيتشه هو الذي صب على الرحمة والصبر معاول الهدم.. إن هذا الرجل يتعذب فهو يعيش عالة على غيره بلا عمل ولا يقتات في ناره إلا وجبة واحدة فحسب ويظل هائمًا بياض النهار ويقضي لياليه المرة في حجرة فوق سطح أحد المنازل أعطاها له أحد الأغنياء.. وهذه حياة الرجل.. عذاب وأوجاع وشرود دائم متصل لا يفيق فيه إلا لحظات معدودة وأحيانًا لا يفيق فقد تمر عليه أيامًا لا يتكلم وتمر عليه لحظة أخرى يضحك ويبتسم وقد رأيته أول أمس وقد انبسطت أساريره فاستوقفته وبدأ يحدثني قلت له سؤاله عجيبًا..

هل ترى أن الفضائل تتولد من بين أكداس الذهب؟!

قال قد يملك الإنسان يا بني صعيد المال وصعيد الفضائل معًا ولكن

الصعيد الثاني لابد وأن يكون سابقًا لأخيه.. إما أن يكون الإنسان قاحل النفس ميت الضمير بارد العواطف وتسمح له الظروف أن يملك المال الذهب عن تلك الخطة لا يمكن أن يبعث فيه الضمير أو ينفذ إلى نفسه المظلمة فيبعث فيها نور الفضيلة المحققة.. لقد كنت في شبابي أعرف امرأة باعت جسدها لرجال الذهب فارتموا في أحضانها.. وانتزعوا ما في جيوبهم ليردوه على هذا الجسد وأثرت المرأة وأصبحت تملك أكثر منهم وخيل إلى بعض الناس الذين يعرفون ماضيها، إن هذه المرأة سوف تتجرد من شيطان الجسد وترد إليها نفسها حينما تقف عند حد عاله من الثراء ولكن ظنهم خاب فلقد استمرت تستنزف أموال الرجال وسألها رجل في يوم من الأيام أما من سبيل إلى الرجوع بعد كل هذه الأموال الكبيرة فأجابت وكانت صريحة حقًا أنني كلما بات المال يزداد كلما تاقت نفسي إلى السير في هذا الطريق.. هذا هو رأيي ولي رأي آخر يا بني.. هو أن الإنسان الذي يملك ناصية الذهب ويفعل الفضيلة ويمارس الرحمة أفضل من الإنسان الفقير الذي يقدم على هذه الأعمال والقداسة أن تملك المال الذي يهدم القيم ويزلزل المبادئ وتسيطر عليه وإذا وجدت إنسانًا نشأ فقيرًا ويعرف الرحمة ويمارسها ويعرف التسامح ويقدم عليه فاعلم أنه نصف فاضل.. أما إذا وجدت غنيًا ثريًا ينزع إلى هذه الأعمال فاعلم أنه فاضل كامل نبيل لأن الأول لم يمتحن بعد أما الثاني فلقد اجتاز الامتحان وكان من الناجحين.. إنك إذا أردت أن تمتحن قداسة الإنسان فاجعله يعيش بين أكداس الذهب!

وألقيت عليه سؤالًا ثانيًا.. قلت هل ترى الحكيم الزاهد هو الفرد المنعزل عن خضم الحياة وما فيها.. من مباذل وشرور وأجاب الرجل متبعًا منطقه: إني أعتبر هذا الحكيم سلبيًا لا قيمة له في الحياة لحكمته عبث وقبض الريح.. إن الحكيم الحق لا يدور على نفسه لحسب وإنما يدور حول كل إنسان وأنت تعلم أن الرجل الحكيم هو الذي يزدري الشهوات ويبتعد عن الكذب وأفانين الخداع والمكر فكيف نبلغ اليقين من أنه يزدرى كل هذه الأشياء إن لم يحيا مع الكاذبين فتنعكس صورته عليهم ويكون فعالًا فيهم.. ألا ترى أن الحكيم المنعزل هو الذي لا يهمه سوى فضيلة نفسه وهذه فضيلة نفسه وهذه فضيلة مشوهة ناقصة مبتورة لا قيمة لها في الوجود إنه أناني مثله مثل الرجل الذي نما إليه خبر وقرع منزله فأبى أن يخبر من يحيون معه في المنزل لتركه وفر وحده من الموت هاربًا وقد ترك هؤلاء صرعى تحت الأنقاض.. ولم يدر الرجل المجنون وهو يحدثني عن صفات الحكيم وواجبه نحو الناس إنه يهاجم في حديثه هنا الفلاسفة الرواقيون الذين صوروا لنا حكمًا لا يضيره إلا فضيلة نفسه فإذا مات أطفال أصدقاءه فإن هذا حرى ألا يؤثر في صفاء نفسه كما أن الحياة العادلة والزيادة في القوت وكل هذه الأشياء ليست خليقة أن تدفع الحكيم عندهم مجاهدًا بنفسه وكأنه في سبيل إضفاءها على عامة الناس!

وسألته سؤالًا آخر قلت بما تملل تلهينا وتمجيد الفاتحين والغازين وأبطال الحروب وعدم تقديرنا لرجال العلم والفلسفة والفكر بوجه عام!

قال إنك تصفق للإنسان الذي يقبض على السيف والسلاح لأن

غريزة الدم والسفك أقوى من العقل عندك والقابض بالسلاح مخاطب غريزتك! ويقيني! إنك تعجب وتصفق لحامل السيف لأن نفسك تتوق أن تحمل مثله سلاحًا وتسفك مثلما سفك دماء وأرواحًا.

قلت له ما هي الفضيلة؟!

قال الفضيلة أو نعيش سعداء!

قلت أين هي السعادة وهل الإنسان بقادر على أن يزيل آلامه؟!

قال نعم هناك آلام لا يقوى المرء على السيطرة عليها ولكنها تزول.. فالموت مؤلم.. والمرض مؤلم.. والشيخوخة مؤلمة ولكن كل هذه الألوان من الآلام لا يقابلها.. المرء دائمًا.

الشيخوخة ألم يحيط بنا بعد عشرات السنين والموت موت الأحباب يؤلمنا ولكن الأيام كفيلة بأن تعمل هذا الألم يتقلص والمرض مؤلم،ولكنه لا يحل بنا كل لحظة أما الألم الدائم والذي نستطيع أن نمحيه فمصدره الجشع إننا نتألم لأننا نريد المزيد لا من الحد الذي شاده العباقرة الأفذاذ فإن هذا المجد من يطمح إليه لا يتألم بل يجد لذة ولكنني أقصد "المادة" أنعرف ما هي المادة "الفلوس.. الفلوس" إننا نريد المزيد ولا نقف عند حد وكل شكوانا وآلامنا مصدرها هذا السؤال.. لما لا نصبح أغنيا..؟!

أي لون من الرجال يحب الناس؟!

قال: قليلون هم الذين يحبون والناس إما أن تخشى أو تسخر.

قلت: تخشى من من؟ أو تسخر من من؟!

قال: يسخرون من الضعيف أو يخافون من القوى..!

قلت: أنت مغالط، أنا لا أؤمن بما تدعيه، وثارت نزعة جنونه التي تهب عليه فلا يقوى أحد على معارضته وأردف قائلًا:

أنت يجب أن تؤمن بما أقول أنام أنت !

طيب القلب + سليم النية + وادع النفس = في نظر الناس أهبل عبيط!

قوي + في يده سوط ومن ورائه شيء تحميه = في نظر الناس جبار عجيب لا يجرؤ أحد على السخرية منه أو التعرض له.

قلت له: هل تؤمن بوجود الإله؟! ونظر إلى نظرة فاحصة ثم أرسل زفرة عميقة من أعماق نفسه ثم أردف قائلًا..

نحن يتامى لقطاء في هذا الكون الذي لا يأبه بنا ولا يحس حينما قذف بنا إلى الوجود ولا يأبه بنا أيضًا حينما نتلاشى تحت التراب وضيع هذا الإنسان في وسط هذا العالم الذي لا يأبه به ولا يشعر بوجوده ولكنه تمرد على وضاعته فاخترع قوة تحس به حينما يخرج وحينما يعود ونشأ الخلود من حب الذات.. زمن تفاهة هذه الحياة وفناءها في لحظات قليلة قال الإنسان.. إن هناك البعث المرتقب الذي فيه سأنعم وسأعيش عيشًا سرمديًا لا نهاية له.

إن عملية الخلق ليست من فعل إله مدبر حكيم.. إن الفعل المدبر والعقل الحكيم لا يمكن أن يخلقا إنسانًا لا معنى له قل لي ما معنى

وجودك؟! وما الغرض من الحياة؟! هل لك معنى؟ هل لك غرض.. لا شيء أنت أليس كذلك؟! لقد خرج الإنسان من فعل عوامل عمياء رغم إرادته ونظر إلى نفسه وكأنه في صحراء جدبًا، لا نبت فيها ولا معين فأحس بالوحدة والضعة والنقص وأراد أن يثبت كيانه وجفل من مجرد التصور.. تصور العدم.. خلق هو الله ولم يكن الله ولم يكن الله هو الذي خلقه ولو كان هناك إله فدعني أسأله.. لم الوجود؟! ألم يكن العدم أفضل له من الوجود هل وجودنا أفضل له من العدم؟ إذا فهو ناقص وهذا محال في نظر المؤمنين به.. هل كان المدم ينغص عليك قبل الوجود فانبثق فعل الخلق؟! لا شيء ينغص عليه في نظر من يؤمنون به هل زاد وجودنا إياه؟! أسئلة لا جواب عليها! الإنسان لا يمكن أن يحيا وحيدًا فلابد له من صديق يحمي وحشته ويمينه على قضاء مصالحه في دنياه القصيرة كيف لا يخترع قوة خارج الزمان تضمن له حياة طويلة وخلودًا دائمًا لا شقاء فيه ولا حرمان.. اسمع يا بني! لقد آمنت لأنك ثرت على وضاعتك وحقارتك وأنت في وسط هذا الفيض من الإيمان والاعتقاد لا تحب الله بقدر ما تحب ذاتك!

ومن منا يرضى بالحقارة؟ من منا يستسلم للتفاهة والوضاعة؟ لا أحد طبعًا.. ومن هنا انبثق الإيمان..

.. وتركني الرجل وانصرف وتساءلت هل هذا الرجل مجنون؟! إن الناس في المنطقة التي أسكن فيها ينظرون إلى هذا الرجل ويعتبرونه بلا عقل ولكن الجنون هو التجرد من الفهم الواعي الصحيح والشعور الذي يندمج مع طبيعة الأشياء والناس.. والرجل ليس من هذا النوع لقد اندمج معي

إن هناك حقًا لصلة وثيقة بين الجنون والعبقرية وإن لم تصدقوا ذلك فاقرأوا كتاب شوبنهور، لأستاذنا الدكتور "عبد الرحمن بدوي" ففي هذا الكتاب القيم فصل وافٍ عن العبقرية والجنون، ومازلت من سنوات ثلاث اذكر هذا البحث ولا أنساه؟

وبعد أن هذا الرجل لا أومن بكل آرائه وأفكاره ولكن لم يمنعني هذا من أن أجلس إليه وأتجاوب معه كلما رأيته فيخيل إلى أنني في حضرة نيتشه.

# اعتراف

نعتوني بالحماقة ولكنني في الحماقة منحت أجمل ما في الحياة!

ثم وصفوني بالضلال، وقالوا إنه أحب خاطئة مدنسة ولكني في الخطيئة– المدنسة أشبعت غروري وعوضت نقصي.. أجل فما الحب إلا حبك لذاتك، فأنت حقير تافه أيها الآدمي الكائن ولم تسعى إلى الحب– لكي تصب دماء الحواس في الجسد لحسب وإنما تسعى لكي تجد امرأة تهتف بك.. لقد انتقيتك أنت دون سائر الرجال لأنك أعلاه شأنًا وأخفهم ظلًا وروحًا.. أي عزاء أجده في فقدها بل ودعني أصيح بمليء في وجوارحي تحترق أي إنسان من الدين نهشوني بألسنتهم يستطيع أن يشبع غروري مثل ما أشبعته هذه الخاطئة حينها كانت تهمس في أذني في صوت هادئ، رخيم.. أنت وحدك أجمل ما في الوجود.. لا تتحدث إلى أي فتاة حتى لا تنزع حبك لي.. إني أخاف عليك من غدر الحياة فبدونك لا هدف لي ولا غاية.. أي إنسان من الذين ألهبوني بسياطهم يستطيع إن يعوضني ما أشعر به من ضعف وحقارة ونقص فيهتم بالميعاد الذي اخرج فيه وبالساعة التي أنام خلالها.. أي إنسان يهمس في أذني قائلًا إنك جميل أنيق ولو الحديث كامل لانقص فيك.. كل هذا سمعته منها وهو أجمل وألذ ما يسمعه الإنسان من الإنسان في كل زمان ومكان وهل نسمع اللحن إلا بين أحضان من نحب ونعشق إنني اعرف إنني لست كاملًا ولكن دعني أتساءل.. أليس الإنسان هو الحيوان الهارب من الحقائق ألا يؤثر دائمًا أن

**يعيش في الوهم ويستمد منه لذة الحياة بدلًا من أن يصطدم بالحقيقة المرة..!**

# الحرمان

"أن تجد سعادة في قضية تحارب غريزة الجنس"

أستاذي الكبير صبري جرجس

سوف أكتب إليك بدمي وأعصابي وسأحاول أن أبسط انفعالاتي وآلامي على القرطاس عل هذا مخفف عني بعض ما أنا فيه من ألم يجعل الحياة أمامي قاحلة جدباء.. ما أروع أن أجد أمامي نفسًا غنية فياضة تحيا مشكلتي وتفهم مصدر آلامي فاستقطر اللذة من الألم. ولكن أين هي النفس الفياضة الخصبة لن نجد إلا القليل من هذه النفوس ومن هنا يؤثر المتألم أن يحمل همومه على كاهله ويطوها في أعماق قلبه فتقوى وتشتد وتصبح أترى منه فيؤثر الموت على الحياة ولما آثر الموت؟! لأنه آمن بأن من حوله ذئاب يلتفون حوله إن وجدوه يطرب ويفرح ويلوذون بالفرار لو عاش في بؤرة من الآلام. لم أجد من يحيا مشكلتي إلى الآن فآثرت أن أحمل همومي على كاهلي وأسير بها في طريق الحياة ولكنها اشتدت وكادت تصبح أقوى مني فل أجد إلا أن ألجأ إليك وسألخص لك حياتي ففيها الدلالة القوية والعبرة العميقة.. ولكنى مهما بلغت من قوة التصوير فإن حديثي عن نفسي على القرطاس سوف يحوم حول الموضوع ولن يصل إلى الجوهر..

لقد نشأت تحت رعاية أم فاضلة كريمة قامت بتربيتي وضحت بشبابها

الغض في سبيل فأنا وحيد بين ثلاث بنات الأولى متزوجة والثانية أما الثالثة فعذراء! أحبتني حبًا قويًا جارفًا لا نهاية له. وحينما دخلت في دور المراهقة اشتدت على الرقابة الصارمة المبيدة لأن هذه السيدة تسيطر عليها فكرة بأن إطلاق شهوة الإنسان عدم في حياته وضياع لمستقبله وإن سير الشاب في هذا الطريق كفيل بأن يجرده من أروع صفاته وليست هذه الفكرة هي التي سيطرت عليها لحسب ولكن هناك فكرة أخرى وهو أن الشهوات العليا أي– الحب– عدم وضياع في حياة الإنسان. فالإنسان الذي يريد أن يحيا بعمق في نظرها هو الذي تجرد من شهواته العليا والسفلى معًا ووقف على قمة النرفا التي كان يبشرها بوذا في الماضي البعيد.. سيطرت عليها هذه الأفكار فصارت حياتي جافة وقد تشاء الظروف أن تأتي لزيارتنا سيدة أو فتاة وأتوق أن أتحدث إليها فأجد نظراتي المشتعلة تحاصرني ثم بعد أن تخرج الفتاة أو السيدة تحاول إقناعي بأن التحدث مع النساء لا فائدة فيه ولا طائل منه.. ولم يكن لي من أصدقاء سوى القلائل كنت أخرج معهم الساعة الخامسة وأصل إلى منزلي الساعة السادسة والنصف وإذا حدث أي تأخير أجد أمي تبحث عني في الطريق وتؤنبني على تأخيري. وكنت أثور أحيانًا على هذه السدود فلا تلبث أي أن تقابل ثورتي بكلمتها التقليدية لو حاولت أن تعصي أوامري فسأمرض وأموت وليس هناك من يعولك غيري. فاهدأ وأستسلم للأمر الواقع..

وحينما بلغ عمرى الثامنة عشر كنت أسمع– من أمي– صديق يأتي لزيارتي أحاديثه عن مغامراته العاطفية وأقف أنا متألمًا في هذه اللحظات

وأتساءل لم أعيش أنا في هذا الجفاف إن حياتي ليست مليئة ولم أكن أريد أن أملأها بحرية الغريزة الجارفة وانغمس في بؤرة من الذات الجسد، ولكنني كنت أحس بأني في حاجة إلى يد ألمسها وإنسانة أتحدث إليها وأتجاوب معها فأنا إنسان ظمأ.. واستمرت معي هذه الحياة التي تتلخص في كلمتين من المدرسة إلى المنزل ومن المنزل إلى المدرسة، وطرأت علي نقطة تحول في يوم من الأيام اطلعت على جريدة اللواء فأثرت هذه الجريدة – وكانت كالشعلة الملتهبة– في نفسي تأثيرًا قويًا عارمًا وراسلتها فنشرت فقرة قصيرة باسمي، وبدأت في ذلك أحيا في عالم الكتب بدأت أدخر النقود وأقتنى الكتب من كل لون.

بدأت أكداس الكتب تتراكم حولي فهدأت قليلًا إلا أني كنت أثور أحيانًا. ولكنني لا ألبث أن أعود إلى عالم القراءة والبحث.. وخيل إلى أنني سأتحجر وستموت عواطفي وأصبح آلة صماء لا تشعر ولا تحس ولكن الصراع في نفسي ينبثق مرة أخرى فاضطر أن أهزم عواطف.. حينها أحدث نفسي قائلًا خلقت للكتب فقط.. أما حياة العواطف فهي بعيدة عني ولاحظت أنني قد تجردت من كل شيء أو هكذا خيل إليها فازدادت سرورًا ومرحًا وكانت كلما تأتي لزيارتنا فتاة تحاول أمي إقناعها بأنني عدو المرأة، وتارة لكل فتاة حتى أنها لفظت هذا القول أمام فتاة أتت مرة لزيارتنا فإذا بالفتاة تتعجب وتصيح قائلة ده مخلوق شاذ لم أره مثله في حياتي. وكان كلام أمي هذا يضايقني ويحز في نفسي حزًا ولكني أعود فاستسلم، وأحاول أن أنسى كل شيء بالاستغراق في عالم الكتب وأثرت الكتب في

نفسي وظهر أول تأثير لها باشتراكي في مظاهرات الطلبة في مدرستي في وجود الملك السابق، وبدأت أزعم المظاهرات ففصلت خمسة وعشرين يومًا من المدرسة وبدأ البوليس يراقبني خفية.. حتى نهاية العام الدراسي. ولم تعلم أمي هذا الخبر غير أن المدرسة أنذرتها بقرار فصلي وصرخت أمي في وجهي وقالت إن كانت الكتب ستدفعك وأنت في هذا السن الصغير إلى هذا الطريق سأمتنع عن شراء أي كتاب يقص تاريخ ثورة أو سيرة زعيم ومرت أيام فصلى وعدت منتظما إلى دراستي وأمي سائرة على خطتها، ولم أتأثر بلون هذه التربية مثلما تأثرت من قبل لأن عالم الكتب كان تعويضًا إلى حد ما وما طرأت علي فكرة في أن كل إنسان يحيا في عالم الكتب يكون بلا أحاسيس ومشاعر أي بلا تجارب ويا لها من فكرة خاطئة، فلقد قرأت أن جبابرة الكتاب في الشرق والغرب الكتاب الذين أثروا عن طريق مؤلفاتهم في مجرى الحياة التي نحياها فإذا هم تلوثوا أحبو أيضًا.. جوته، تولستوي، ديكنز، كارليل..

ألم يحيوا هؤلاء في عالم الكتب وما زالوا خالدين؟! ولكنهم ذاقوا طعم الحب.. هل الحب عدم في حياة الإنسان كما تؤمن أمي لا إنه ينبوع فياض ألهم عقول الكتاب فأبدعوا وأجادوا وها هو جوته المفكر الفذ ما سطرت براعته كتاب "آلام فارتر" الذي قرأته مرتين إلا عن تجربة حياها بنفسه وذاقها وجدانه وقلبه!

استمرت أمي على هذا الحال واستمر الجفاف يلاحقني ويدميني.. جعلتني أمي أغالي في الفضيلة حتى شعرت بأنها قد انبسطت أمامي جحيما

على حد تعبير الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه.. وكنت أنس لها العذر فلقد أحبتني حبا جارفا فياضا واعتقدت، أنني لو أحببت فتاة لتحول قلبي عنها وبغضتها بغضا شديدة.. كانت تربيتي الجافة.. من نبع حبها الصافي لكنها كانت تربية خاطئة.. أليس كذلك؟!.. نعم تربية خاطئة فلقد كنت أعلم أنني سأنفجر بعد طول الكبت والحرمان سأعوض ما فاتني فلقد بلغت الثانية والعشرين من عمري ولم ألمس.. ولم أتجاوب.. فأنا إنسان وحيد وفي وحدتي لا أجد إلا الجفاف والمدم.. وبالرغم من أنني مدلل و محبوب من أمي فإن حبها الفياض لي لم يحل بيني وبين الشروع إلى حب ولكنه من لون آخر.. وفي الحقيقة وسأبدو عاريًا أمامك مصرحًا لك بكل ما يعتمل في نفسي.. إني كنت أتمنى أن أسمع كلمة حلوة من فتاة أو تلمس يدى يد فتاة لا أكثر ولا أقل، فأنا إنسان حساس إلى حد بعيد قد تمر على أي إنسان صورة من صور البؤس البشري في هذا العالم الصاخب المضطرب فتجده لا يعير اهتمامًا.. أما أنا فتجد في دينها أجد هذه الصورة أفكر وأتأمل وأتألم وأتعذب.. وسأضرب لك مثلًا بسيطًا على شدة حساسيتي فقد كان لي صديق أحب ثم اختطف الموت من أحب ولم يكن هذا الصديق يذهب لأي فرد يعرفه سواي، فأنا الوحيد الذي أشاركه الألم وأحيا مأساته الدامية وكان هو يشعر بذلك فيضحك أمام أصدقاءه كلهم ويبكى أمامي من كل جوارحه الحزينة.

وأردت في يوم من الأيام أن أقنع أمي بأني لو أطلقت العنان لشهواتي العليا أي أنني لو وقعت في تجربة حب عف بريء فإن حبي لك أن يتحول

ولن يطغى هذا الحب الجديد عليه ولكنني آثرت الصمت فإنها لن تقتنع على الإطلاق واستمرت حياة الجفاف حتى ضقت بنفسي وبكل شيء حولي وازداد الألم شيئًا فشيئًا.. وشعرت أمي بذلك فقالت لي إن الذي يحيا في عالم الكتب لا يعرف ولا يجرب شيئًا آخر قلت لما كيف ذلك! لقد أحب وسلامه موسى، وأحب العقاد وأحب الحكيم، وأحب هيكل، وغيرهم وغيرهم، وهل هؤلاء آلات لا تحس وليس فيها نبض أو قلب أو شعور.. وصمتت ولم تجب، وزادت إمعانًا في الرقابة على وفي إفهامي بأن الحب، الذي أتحدث عنه وهم لا وجود له في عالم الواقع ولم ترتجع عن خطتها التي سارت عليها فكلما تأتي لزيارتها فتاة أو سيدة تنطق أمي بنفس الكلمة ابني عدو المرأة.. وحينما وجدتها قد أمعنت سيرًا في هذا الطريق شعرت في الحقيقة ثورة في أعماق تريد أن تنفجر، أردت أن أحطم كل شي. ولا أبالى بما تقوله لي– من أنها مريضة وإني لو عصيتها ستموت– فانغمس في بؤرة الحياة المدنسة ولكنني كنت أحتقر نفسي حينما ينتابني هذا الشعور فلقد قلت واعترفت لك بأنني لا أريد الشهوات السفلى،ولكنني أريد شيمًا أروع وأنظف من ذلك شيئًا اسمه الحب.

وشاء القدر ومرت علي التجربة وأنا في الثانية والعشرين من عمري وكانت تجربة قاسية عنيفة وسأدعك تتصور حالة إنسان لم يسمع كلة ولم يمس جسدًا يقع في تجربة حب، فقد سكنت بجوارنا وضايقوها بعض الشباب وطلبت أمها أن أبعدهم فهم يعرفوني ويقدرونني ويحبونني وجاءت هي وأمها إلى المنزل للشكر ولم يكن غيري في المنزل فقد خرجت أمي

لزيارة أحد أقاربنا في هذه اللحظة ومنذ ذلك الوقت بدأت توجه إلي نظراتها الملتهبة.. كل ليل بدأت تبتسم كلما رأتني مقبلًا أو ذاهبًا وبدأت أبادلها الابتسامة ولكن برعدة قوية هزت أوصالي،فهذه أول مرة تبتسم لي فيها فتاة ونزلت يومًا من الأيام قاصدًا إحدى دور الكتب كعادتي كل أسبوع فوجدتها تتبعني ومشيت رويدًا رويدًا حتى صادفتها ولكن برعدة قوية وقد ران على وجهي إصفرار الموت وأنا أحس أن الأرض تميد تحت قدمي وأن نظرات الناس ترمقني.. وكانت المقابلة الأولى أو الحب الأول يقتحم حياتي القاحلة الجدباء.. وكان حديثها كله ملتهبا ولا تسل كيف كانت حالتي حينما كانت تسير بجانبي ويدها قابضة على يدي وهي تردد أتعرف لم أحببتك؟! قلت ما الذي دفعك قالت إن هدوئك واتزانك هو السبب، وراودتني جرأة في أن أسألها عن الماضي فقالت.. هذه أول مرة أحببت فيها وسأحبك حتى نهاية حياتي وصمت أمامها بعد ذلك تاركًا تفصح عن ذات نفسها كان حديثها كله يندلع بعبارات وكلمات يهتز لها كياني ومعذرة إن اهتز هذا الكيان، فهي أول مرة أسمع فيها بل وأرى شفتين ينطلق منهما ما يسري في فؤادي ونفسي سريان الماء في جسم قد طال به الظمأ واشتد به الجفاف.. وتركتها بعد أن قالت لي إن الذي تحب يضحي بكل شيء وسأنتظرك حتى إتمام دراستك!

إن الدين عقبة، ولكننا نستطيع أن نذللها، وتركتها بعد ذلك لأعود إليها مرة أخرى.. وكانت نظراتها إلى تنم عن حبها الصادق الفياض وكنت أشعر بأن هذه النظرات تمد الظل إلى جسدي ونفسي بعد أن احترقت

طويلًا بشمس الجفاف.. أما أنفاسها فطالما سرت في فؤادي وأزالت كل ما رسب فيه من ركام الحرمان القاتل طوال هذه السنين، ومع ذلك كنت أحيا في ألم خفيف فأنا أريد أن أثق من حبها لي وأسلم لها قلبي. فترد إلي قشعريرة الحياة وطعمها وما فيها من سعادة ومتعة وحبور وبدأت أؤمن في أنها تحيا بشعور الحب نحوي، فلقد قابلتني أمها يومًا في الطريق وكعادتي سألت عنهم جميعًا في المنزل فإذا بها– تشير إلى الفتاة– وهي لا تدري من الأمر شيئًا– قائلة لقد أصابها الأرق فهي لا تغفوا إلا قليلًا وربما نذهب بها إلى الطبيب غدًا.. وساءلت نفسي أهذا هو الحب؟! إن هذا حقًا أول أعراضه لكل مرضاة! ومضت الأيام ثم قابلتها مرة ثالثة وعدت من هذه المقابلة سريعا حتى لا أتأخر فتخرج أمي للبحث عني كعادتها.. وعند حضوري حاصرتني أي بهذا السؤال أين كنت؟ وأجبت على الفور عند أصدقائي وجلست أمامي صامتة وهي تردد لنفسها أنه هم ثقيل قلت لها أي هم وقع علينا إننا بخير والحمد لله قالت لا شيء إني فقط أحس بالقلق والضيق والانقباض.. وسألتها من أي شيء قالت دعني أفكر في هموم الزمان وحدثني قلبي في أنها ربما قد علمت بشيء.. ولم يكذب هذا القلب فلقد علمت أنني قابلت الفتاة وقضي الأمر وحينما علمت بذلك أحسست بصراع عنيف.. فالفتاة لا يمكن أن أتخلى عنها وقلت لنفسي والصراع يدور أنا لن أعود إلى حياة الجفاف! إنني لن أجد السعادة في كبت هذه العاطفة التي لابد لها أن تنفجر حتى يحيا الإنسان منا ولا يتألم، ولكن أمي هذه السيدة العجيبة سوف تبني نتائج كثيرة على هذه العلاقة التي بيني وبين الفتاة سأكرهها هي وأنبذها سيتحول قلبي عنها.. وهذا هو

ما تؤمن به.. ستقضي الفتاة أيضًا على مستقبلي لأن الحب هو الضياع في حياة كل إنسان وهذا هو إيمان آخر يسيطر عليها ولا يمكن أن تطرده من ذهنها.. وكان الصراع عنيفًا حقًا أمي والفتاة قد تعلقت بها وارتبطت وإياها برباط واحد ولكن هل أحطم إرادة أمي؟ وكيف أعصى لها امرا وهي التي ضحت بشبابها في سبيلي.. وهي التي أحبتني حبًا قويًا جارفًا!

ومر علي يومان والصراع مستمر حتى جرت الحوادث مجراها وقابلت الفتاة مرة رابعة أما الحوار الذي دار بيني وبينها فقد كان حوارًا عميق الأثر في نفسي أنا المرهف الحس ولكن كان كفيلًا بأن يبعث الحياة في الجماد وحتى إذا كان حديثها مفتعلًا لم ينبع من أغوار قلبها فإنه رسب في أعماقي وكيف لا يرسب؟! ومن يجرؤ على القول وهتفت إياك أن تتأثر بمثل هذا الكلام... كثيرون من الذين عاشوا ومازالوا يعيشون بيننا بلا عواطف..أنا لا أدري كيف يقال لي لا تتأثر.. مخلوق عاش في جفاف مخلوق لم يتلوث في حياته مخلوق لم يسمع كلمة من فم عذراء ثم شاءت له الظروف أن يسمع وأن يلمس وأن يرتوي بعد طول الظمأ والحرمان ألا يلتمس لي العذر حتى ولو كانت الفتاة لعوب لم يصدر كلامها عن تجربة تعانيها وتلتهب بنارها.. وتركتها بعد هذه المقابلة بعد أن بكت ولست أدري لم البكاء؟! ما سر بكاءها لقد سألتها وأنا جالس بجوارها وكانت بجاني في إحدى دور السينما لم تبكي؟! جففت دموعها وقالت في صوت خافت رخيم.. الإنسان تتحكم فيه الظروف وتلعب به الأقدار أهذا صحيح قلت نعم.. ولم أفهم من قولها هذا أي شيء ورجعت من هذه المقابلة بعد أن ضربت لها موعدًا آخر.. عدت في هذه الليلة

واستسلمت للنوم بعد تفكير طويل وما أدري في الساعة السابعة صباحًا إلا وشقيقتي توقظني من نومي ونهضت مذعورة وجسدي كله قد أصابته رعدة قوية لأجد أبي تتفجر البركان الثائر! لقد اكتشفت الحقيقة.. أرسل إليها القدر سيدة تقطن بجوارنا وأخبرتها بأن هناك علاقة بيني وبين الفتاة وأقنعتها هذه السيدة بأنها قد رأتني معها في الطريق، ثم استطردت قائلة أنا حزنت على ابنك لما شفته عمل كده كان شاب مغمض زي البنت الطاهرة وميعرفش حاجات زي كده والبنت أوقعته في حبالها وياريت هي بنت.. لقد اعتدى عليها راجل وطمعهم إنه راح يتجوزها وبعدين ضحك عليهم وسابها.. وترنحت أمي لهذا الخبر.. إن سيري مع فتاة كفيل بأن يجعل أمي تثور. وقد زاد الطين بلة حينما علمت أني أسير مع خاطئة.، وحينما استيقظت أرسلت أبي في طلب أم الفتاة وصارحتها بكل شيء ثم انفجرت فيها وصاحت تولول بأعلى صوتها أنتم جنيتم على ابني بنتك خسرته وبوظتة وتلفت أخلاقه وكان شابا مستقيما عمره ما عرف بنات أو اتكلم مع بنات بنتك شوهت سمعته أنتم يجب تطلعوا من الشارع إلا وتقطعوا رقبة بنتكم الملوثة القذرة.. أنا خايفة على ابني وظلت أبي تردد هذا اللون من الكلام وبهتت أم الفتاة ثم أقسمت أن يخرجوا فورًا من الشارع بل من المنطقة كلها.

ولم تمض أربعة أيام حتى كان المنزل خاليًا منهم فلقد رحلوا بعيدًا وأحسست في يوم الرحيل بهزال عنيف ولن أستطيع أن أصور لك حالي في هذا اليوم وخرجت بعد ثلاثة أيام من رحيلهم لمقابلة أحد أصدقائي، وهو بشغل سكرتير للنيابة التابعة لها منطقتنا ولاحظ صديقي على اضطرابًا

فلقد كان وجهي قد اعتراه الذبول وأراد من أن أفصح عن نفسي وأخذني إلى منزله وبدأت أسرد عليه قصتي وذكرت له اسم الفتاة وأبيها وعنوانها وإذ به يهتف في صوت أجش.. هل تعرف هذه قلت نعم. قال لقد كانت في السابعة عشر من عمرها فتاة يافعة جميلة حينما دخل في منزلهم أحد الرجال الأغنياء واعتدى على أثمن ما تملكه في حياتها.. والقضية كانت أمامي في النيابة منذ أكثر من عام.. وتركت منزله في هذه اللحظة .

ووصلت إلى حجرة مكتبي وأنا خائر القوى والأعصاب.. وانتابني صراع دامي عنيف لقد استطعت أن أصل إلى نبع أرتوي منه.. وما إن بدأت أروى ظمأي حتى انتزعت هكذا في روضة خاطفة! وإذا استطعت أن أحطم إرادة أمي وأجعلها توافق وتبارك حبي فكيف أستطيع أن أحطم هذا التنين الذي أمامي.. كيف أستطيع أن أحطم عقلي وهو في عراك مستمر مع عاطفتي القوية الجارفة.. وإذا انتصر منطق العاطفة على حكم العقل.. فمحال أن انتصر على هذا التنين.. المجتمع.. الناس.. لا مفر لي من أن أهم عواطف تجاه الفتاة لأن التنين يحاصرني.. إن كل فرد يعرفني يصيح بي ابتعد أنها خاطئة ملوثة استسلمت لرجل فاعتدى عليها وباعت له أثمن ما تملك أنها تشع خطيئة وجرمة وكأنهم هم الأطهار الملائكة المتنزهون عن الخطايا والآثام.. والعجيب في الأمر أن كل من عرف بالعلاقة التي بيني وبين الفتاة صب علي الغضب وتوالت من جانبهم اللعنات على فأصبحت مشيعة بها في كل لحظة وقد تسأل لم هذه اللعنات .. ألست إنسانًا خاضعًا لطبيعة البشر! السر في هذه اللعنات هو أن أمي

أعطت كل الأصدقاء والمعارف والأقارب فكرة خلاصتها أن ابني إنسان سامي غالى في السمو فلا ينظر لامرأة ولا يعرف فتاة ولا يدخن سيجارة، ولا يعرف حتى أن يجلس في مقهي وعاشت هذه الفكرة في أذهانهم فإذا كل من يعرفني يرصد حركاتي وكأنه رقيب على، وكنت أعجب بذلك حينما يقابلني إنسان ويقول إنك مثال الأخلاق كنت في الحقيقة أجد لذة في الإطراء إلا أني كنت أخشى وارتعد أحيانًا فزعًا أقع في تجربة أي تجربة وأنزلق ولابد من الانزلاق فيكون موقف الناس منى غير موقفهم من أي شاب آخر يرتكب هذه الأفعال.

لقد قيدوني وفرضوا على طريقًا لا أحيد عنه أما هم فلهم الحق في أي جرم يقدمون عليه.. وقد قلت لأمي في يوم من الأيام وقبل أن أقع في هذه التجربة أن هذه الفكرة التي وزعت من جانبك على الناس في أنني أنبذ كل شيء فكرة قد تنتشي لها نفسي وترتوي وتتلذذ ولكن المغالاة فيها ستؤدي إلى أوخم العواقب قالت لماذا؟! قلت لها.. إني إنسان لا أكثر ولا أقل.. ولا بد أن أخطئ في الغد القريب أو البعيد والموتى والآلهة.. هم الذين لا يخطئون وأخاف أن أخطى. فأكون مضغة في أفواه الناس يشيعوني باللعنات.. قولي لهم أني معرض لكل شي إنني مثلهم تمامًا ألم يتعرضوا هم بكل مباذل الحياة وخطاياها ولكن هذا الكلام لم يرقها بل ازدادت في الإمعان بأنني قديس... حتى مرت علي التجربة فإذا بالناس لا ترحمني فكل إنسان قال لقد فقد عقله أصابه الجنون ما الذي دهاة كان لا يعرف شيئًا من هذا لعنة الله عليه.. إن النظرات ترمقني في كل مكان يوجد فيه

من يعرفني ولكنني لا اهتم بهذه اللعنات وتلك النظرات فكفاني ما أنا فيه من ألم أجده في الصراع الذي يمزقني تمزيقًا! منطق العاطفة! الجفاف الذي عشت فيه! هذان يدفعاني أن أرتمي بين يديها فتمسح على جبيني الوسنان فترد إلى قشعريرة الحياة وتزيل كل ما يسب في أعماقي من الجفاف والحرمان.. ثم ارتد مرة أخرى حينما يقفز العقل باسمي صورة فيرد كل شي. إلى أصله يرسم المستقبل ويسرد الماضي فيرى في الماضي السواد فأصبح بلاء.. ليست لي خاطئة وإن أرى سعادة على الإطلاق. ولكني أعود مرة أخرى فأبرر ماضيها الملوث وأفلسف خطيئتها حينما تدفعني العاطفة أن أقول لنفسي أشد استسلمت لرجل وأعطته الجسد طمعًا في أن تربطه وإياها برباط واحد أليس غاية كل عذراء أن ترى نفسها في منزل الزوجية .. أليس من حق كل عذراء أن تصل إلى الغاية بأي وسيلة، ولو وصلت إلى غايتها بأي وسيلة بشعة، لا ينبذها ويحتقرها المجتمع ويسخر منها سخرية مرة، بل كانت قد أصبحت زوجة تحوطها حالة من التقدير والاحترام ولكن القدر أخطأ في حقها فلم تصل إلى غايتها فسقطت في منتصف الطريق ولم يرحمها إنسان.. ولكنها لم تفقد الأمل ولم تذهب بها الثقة في كل إنسان على هذه الأرض فوثقت في واطمأنت إلي حتى أنتزعها من الأوحال قبل أن يمن المجتمع في قسوته المرة فتنتقم منه ولا انتقام أمامها سوى ضعف الرجال فتعرض عليهم هذا الجسد، وتصير امرأة هلوك لا هم لها في الحياة سوى سلب الرجال أجسادهم وأموالهم، أجل وثقت بي أن أنتزعها من بؤرة، لابد أن ترى فيها إن لم يجمعها سقف واحد هي وإنسان يحنو ويغدق عليها فيض حبه وعطفه وحنانه .

لقد عرفت سر بكاءها الآن لقد خشت أن تصارحني مرة واحدة خشية أن أبتعد.. إن المجتمع قد قسى عليها أول مرة حينما ذهب واحد من أفراده ليغرر بها ويخدعها وها هو يقسو عليها مرة ثانية حينما تعرف أي بالعلاقة وتحاول هدمها وقد قذفت أمي في وجهها بعبارات قاسية إنه لا يتزوج أمثالك.. أليس قول أمي هذا كفيلًا بأن يجعلها تنتقم وتنزل في بؤرة الحياة المدنسة.. أهكذا أصبحت طريدة منبوذة أن تعرف الحياة الزوجية بعد ذلك، فأي حياة لها غير حياة الخطايا والآثام؟! أخاطئة هي في حقها؟! نعم خاطئة لم تتركني أحنو عليها وأرفعها لم لا أتزوج خاطئة وأمحو خطيئتها وأسترد لها مكانتها أمام الناس مرة أخرى فتشعر بكيانها ووجودها؟ ويا لها من لذة كبرى حينئذ أحس بها حينها أنظر إلى قدرتي العجيبة التي استطاعت أن تخلقها من جديد وتجعلها إنسانه بكل ما في الكلمة من معنى.. كل ذلك الكلام أردده حينما تهفو عاطفتي نحوها.. ولكن سرعان ما يزول هذا التبرير حينما يرتد العقل مرة أخرى ولكن العاطفة قوية جارفة وقد قال إلي البعض إنك لم تعش في حقل التجارب وأي كلمة من فتاة تؤثر عليك فتنفجر عاطفتك وتنطلق جامحة من كل قيد ولو خضت حياة التجارب لم كان لهذه الفتاة أثر في حياتك لم انتابك هذا الصراع الدامي الذي يعيش في نفسك ويؤرقك.. ولكن ما الحيلة ؟ إن الصراع مستمر. ولا يمكن أن نجد سعادة نحن البشر في هذا الصراع!

# الفهرس